اقرأ

أحمد سويلم

# أطفالنا .. في عيون الشعراء

# اقرأ

تصدر أول كل شهر

[ ٥١٧ ] - نوفمبر - ١٩٨٥

رئيس التحرير **صلاح منتصر**

أحمد سويلم

# أطفالنا .. في عيون الشعراء



دار المعارف

تصميم الغلاف : منال بدران

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

إلى ابنتي ريهام ..

قصيدة حبي إلى هذا العالم!

أحمد

وإنما أولادنا بيننا
أكبادنا تمشي على الأرض

لو مرّت الريح على بعضهم
لامتنعت عيني عن الغمض

( حطّان بن المعلى )

# ملاحظة أولى

فى دراسته ( فى أدب الأطفال ) يقرر الدكتور على الحديدى أن عالم الأدب المكتوب للأطفال لم يوجد إلا فى العشرينات من هذا القرن ..

ومنذ سنوات وبالتحديد فى الخامس عشر من سبتمبر عام ١٩٧٨ . طالعتنا صفحة الجمعة الأدبية بجريدة الأهرام بموضوع حول أدب الأطفال وحواديت الطفولة[1] ..

وقد اتكأ على مقولة الدكتور الحديدى وأخذ يفرّع منها مقولات أخرى مثل :

* شوقى أول شاعر فى العربية يكتب للأطفال .
* رفاعة الطهطاوى أول من أدخل أدب الأطفال إلى المدارس .

ثم يناقض الكاتب نفسه مرة أخرى فى نفس الموضوع فيقول :

---

( ١ ) كاتب هذا الموضوع هو الأستاذ فتحى سلامة .. وانظر أيضا ( فى أدب الأطفال ) د . على الحديدى - مكتبة الانجلو ص ٢٤٤ .

إن محمد الهراوى يعتبر أول من تخصص فى الكتابة للأطفال ..
وأيضًا : ويعتبر كامل كيلانى الأب الشرعى لأدب الأطفال ..
إلى غير ذلك من الآراء التى جعلتنى أتوقف أمامها مدفوعًا إلى البحث وراء الحقيقة فى هذا المجال ..

وأعترف أننى لا أختلف على أن « أحمد شوقى » شاعر فذّ أضاف إلى التراث المعاصر ما عجز عنه الكثيرون .. لكن الحب وحده لا يكفى لتقدير عبقرية إنسان أو فنان .. ومادام يسوقنا الولاء والحب وحدهما فى طريق الحقيقة الشائك .. فلن تكتمل ملامح الصورة كما نود .. وإنما سوف تكون حقيقة يشوبها النقصان .. نتحمل وحدنا وزر طرحها على الذهن العام ..

وما يشغلنى فى هذا المجال هو جانب الشعر .. لذا رأيته موضوعًا يستحق البحث والتدقيق ويستحق منى المحاولة المخلصة للوصول إلى الحقيقة التى تعطى الناس أحجامهم وأقدارهم دون تزيّد أو نقصان ..

وكان لابد أن أتريث أمام جذور الأدب الذى كُتب للأطفال منذ حاول الإنسان القديم أن يأخذ أبناءه بالتربية والتهذيب والتثقيف .. وماذا عن الشعر فى هذا الأدب .. وكيف كان يُنظر إليه حينما يوجهه المعلم أو الأب أو الحكيم إلى الأبناء ..
ووجدت شعر الأطفال فى الحضارات القديمة – خاصة الحضارة

المصرية – له أهمية خاصة تكاد تجيء فى مقدمة الوسائط الأدبية فى مجال الأدب .

ثم تناولت شعر الأطفال عند العرب .. ونقبت عن بعض الصفحات الغائبة من أشعار الأطفال فى التراث . وهى قليلة نادرة .. ثم ناقشت قضيتى قلة النماذج فى التراث العربى ، وما إذا كان يوجد شعر موجه حقيقى للأطفال .. وحاولت أن أفسر ذلك على ضوء كثير من الحقائق والآراء التى طرحتها الساحة العربية ..

وصاحبت المعاصرين من الشعراء الذين أخلصوا فى الكتابة للأطفال .. وحاولت استخلاص أسباب هذا الاهتمام ودوافعه .. ابتداء بالشاعر محمد عثمان جلال ومرورًا بأحمد شوقى والهراوى والكيلانى وغيرهم .. وسقت بعض التجارب المتميزة فى الوطن العربى – ومنه مصر – فى إطار الحديث عن محاولات الكتابة بالشعر الحديث – أو الحر .

وفى خاتمة الدراسة وجدتنى أدعو إلى ما يسمى ( بديوان الطفل العربى ) الذى ينبغى أن يحتشد له الشعراء على امتداد الوطن الكبير ليكون كائنا حقيقيًا يسعد به الأطفال – أجيال الغد .

وكنت قد اشتركت بدراسة موجزة عنوانها – ماذا كتب الشعراء للأطفال – فى أكثر من حلقة دراسية بمناسبة عام الطفل الدولى .. وكانت الدراسة الوحيدة التى تناولت شعر الأطفال بين شتى الدراسات وأهم هذه الحلقات :

* الحلقة الدراسية التدريبية فى مجال الطفولة وعام الطفل الدولى - التى عقدت فى معهد التدريب الإذاعى بالقاهرة من أكتوبر ١٩٧٨ حتى يناير ١٩٧٩ - وقمت بتدريسها لطلبة الحلقة من مقدمى برامج الطفل ومعديها ومخرجيها بالإذاعة والتليفزيون ..

* الحلقة الإقليمية حول مشكلات إنتاج وتوزيع الكتاب فى العالم العربى وخاصة كتاب الطفل ، وقد عقدت فى مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة من ٢٩ يناير حتى ٣ فبراير ١٩٧٩ واشتركت فيها عشر دول عربية .

وأخيرًا..

فيسعدنى أن أتقدم إلى القارئ العزيز والمهتمين بالطفولة بهذه المحاولة .. متمنيًا أن تضيف جديدًا إلى المكتبة العربية فى هذا الموضوع .. وتحضّ الكثيرين - فيما بعد - على تناول أبعاد أخرى لهذه القضية .

والله ولى التوفيق ..

أحمد سويلم

يوليو ١٩٨٤

# مدخل عام إلى أدب الأطفال

الأدب :

الأدب قديم قدم الإنسان .. ونعنى به فن الإبانة عن النفس أو هو ذلك التعبير المتجدد عن مشاعر الإنسان فى مواجهة العالم من حوله .

وتتردد كلمة ( أدب ) فى حياتنا اليومية لتشمل تلك الوسائل الفنية المختلفة التى تقوم على التعبير بالكلمة عن الفكر والوجدان .. ومن ثم يختلف الأدب عن العلم - مثلاً - فى أن العلم قد لا يعبر عن الوجدان بقدر ما يهتم بالحقائق الماثلة والواقع النظرى أو العلمى .

وحول كلمة أدب يختلف المؤرخون .

فهذا ابن منظور يقول فى لسانه :

الأدب : الذى يتأدب به الأديب من الناس .. سُمى أدبًا لأنه يؤدب الناس إلى المحامد وينهاهم عن المقابح .. والأدب : أدب

النفس والدرس .. وأدَّبه : علمه « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » الحديث ...

ويعرفه الجُرجانى الحنفى فى مصنَّفه ( التعريفات ) هكذا :

الأدب : عبارة عن معرفة ما يحترز به عن جميع أنواع الخطأ .

وآداب الحديث : صناعةٌ نظرية يستفيد منها الإنسان كيفية المناظرة وشرائطها صيانة له عن الخبط فى البحث وإلزامًا للخصم وإفحامه .

أدب القاضى : هو التزامه لما ندب إليه الشرع من بسط العدل ورفع الظلم وترك الميل .

أما ابن خلدون فيقول عن علم الأدب :

– إنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته .. وهى الإجادة فى فَنَّىْ المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم ...

ثم يقول : إن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهى : أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبى على القالى البغدادى ، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها .

وقد استخدمت الكلمة على مدى تاريخ الأدب استخدامات كثيرة منها أنها تعنى : الداعى إلى الطعام ، ومنها المأدبة ، بمعنى الطعام الذى يدعى إليه الناس ، لكن الحديث النبوى – كما رأينا – يضيف إليها معنى تهذيبيًّا صريحًا « أَدَّبَنى رَبِّى .. » على حين

يستخدمها مخضرم يسمى سهم بن حنظلة الغَنوى بنفس المعنى إذ يقول :

لا يمنع الناس منى ما أردت ولا      أعطيهمو ما أرادوا حسن ذا أدبا

وهذا المعنى الخلقى لم ينقطع فى أى عصر عربى .. فقد قال عمر ابن الخطاب : احفظْ محاسن الشعر يحسنْ أدبك ..

وسمى الماوردى كتابًا له : أدب الدنيا والدين ..

ولو أردنا أن نسترسل فى مثل تلك التفسيرات لدى العرب لملأنا صفحات وصفحات إذ استطاع العرب أن يحشدوا تحت كلمة ( أدب ) كثيرًا من معانى الحياة .. تتصل بالسلوكيات وبالأخلاق والفن والإبداع جميعًا .

بل عنى المستشرقون كذلك فى تفسير كلمة أدب .. وكانوا يقتربون أحيانًا من التفسيرات العربية .. ويبتعدون فى القليل النادر .. رغبة فى توسيع مدلولاتها ومنهم ( نلينو ) الذى ذهب إلى أنها تعنى ؛ سيرة الآباء والسُّنة والعادة .

ويرى الأب أنستاس مارى الكرملى أن الأدب صنعة الأديب — وهى واردة فى اللغة اليونانية بهذا اللفظ والمعنى .

ومن ثم فإن الأدب قد يشمل كل ألوان المعرفة .. وقد يضيق ليقف عند الكلام الجيد من الشعر والنثر .. وقد لوحظ مثل ذلك فى الفكر الغربى مما اختلف حوله الكتّاب .. وفى هذا الصدد يقول

أمرسن الأمريكى : الأدب سجل لخير الأفكار[1] .

وهو تعريف للأدب بمعناه العام .. على حين يقول : سانت بيف الناقد الفرنسى :

- الأدب هو الأسلوب الجميل الذى يصور الحقائق الإنسانية .. وهذا هو الأدب فى إطار أضيق قليلا .

أما أداة الأدب فلا خلاف على أنها اللغة .. والتى تحمل الأفكار والمعانى والصور إلى القارئ وبهذه النظرة لا يختلف الأدب الذى يوجه إلى الكبار عن ذلك الأدب الذى يوجه إلى الصغار إلا فى الموضوع الذى يتصدى له كل منهما بحيث يلائم ذهن القارئ واستعداده للاستيعاب وكذلك فى الأسلوب الذى يحمل هذه الأفكار إلى المتلقى ..

وحينما ننظر إلى حركة التاريخ العربى ونظرتها إلى الأدب .. نجد كثيرًا من التطور لمضمونها على مر العصور حتى وصلت إلى ما هى عليه الآن ..

ففى العصر الأموى مثلا .. دلت الكلمة على الشعر والنثر وما يتصل بهما من الشرح والأخبار والأنساب .. ويدل على هذا قول معاوية بن أبى سفيان « اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر أدبكم » .

---

(١) لا شك أن جدلاً كبيرًا حول مفاهيم الأدب يتناثر فى كثير من كتب النقد .. لكننا نحاول هنا عرض آراء تتعلق بغرض هذه الدراسة قدر المستطاع .

كما أطلق على الملمين بهذه الثقافة - أدباء - ويدل على هذا قول شاعر فى مدح الخوارج :

أدباء إما جئتهم خطباءُ ضمناء كل كتيبة جرار

أما العصر العباسى .. فقد جعل الأدب يشمل إلى جانب الشعر والنثر .. النحو والصرف واللغة والنقد .. وأُلفت كتب كثيرة بهذا المعنى .

ثم تشمل الكلمة علومًا أخرى وثقافات متعددة فيما بعد .. يجمعها الشاعر القاسم إسماعيل بن أحمد الشجرى من شعراء القرن الرابع فى قوله :

إن شئت تعلم فى الآداب منزلتى وأننى قد عدانى العز والنعم
فالطرف والسيف والأوهاق تشهد لى والعود والنرد والشطرنج والقلمُ[1]

فإذا ما وصلنا إلى العصر الحديث نجده وقد تميز باتساع المعارف والثقافات .. وكان لابد أن تضيق كلمة الأدب - وتتخصص . لتدل على علوم اللغة العربية وحدها .. بل نجدها قد اقتصرت على الجيد من الشعر والنثر - كما كانت دلالتها فى العصر الأموى .

ولا أعتقد أننا نحيد كثيرًا عن الحق حينما نعرّف الأدب اليوم - بأنه التعبير المبدع الجميل عن الفكر والوجدان : شعرًا كان أم نثرًا . .

---

( ١ ) الأوهاق : جمع وهق ، وهو الحبل .

وقد تعددت اليوم موضوعات الأدب وفروعه بل اتصلت بها عمليات التذوق والنقد والرأى .. لكن أبرز فرعين فى العصر الحديث هما : الشعر والقصة .. ويبدو أن الألوان الأخرى قد تفرعت عنها واتصلت بها بجذور قوية .. مثل المسرحية والمقامة والأنشودة .. والمقالة والخاطرة وغيرها من ألوان الإبداع ..

## أدبان أم أدب واحد :

حينما نمعن النظر اليوم إلى ساحة الأدب نجدها وقد انقسمت إلى جانبين كبيرين : أدب للكبار .. وأدب للصغار[1] .

صحيح أن الجانب الذى يشغله أدب الكبار يشمل مساحة أكبر بكثير من تلك التى يشغلها أدب الصغار مما يجعلنا أمام تساؤل يتعلق بتعليل هذه الحالة من الإبداع ، خاصة أن الطفل يشكل اللبنة الأولى فى أى بناء إنسانى .. وأن الثقافة – كما هو معروف – تبدأ بالطفل .

أما الأدب الذى يوجه إلى الكبار .. فهو ببساطة ذلك التراث الأكبر من إبداع البشرية منذ أقدم حقب التاريخ .

أما أدب الصغار فإن جدلاً كبيرًا يثور حول نشأته وطبيعته ..

---

( ١ ) هذا يعنى بالطبع أن الأدب المعاصر – خاصة فى القرن العشرين – قد فصل تمامًا بين اللونين .. وأصبح لكل منها كتابه ومفكروه . !

وما إذا كان يستحق أن تكون له مساحته الخاصة فى الأدب الإنسانى .. أم لا .

وقد توقف الباحثون أمام تراث الحِكَم والمواعظ التعليمية لدى الحضارات القديمة .. وما إذا كان من الممكن أن تضاف بارتياح إلى باب الأدب أم لا .

ويذكر التاريخ تلك الكتب التى كتبت للصغار باللاتينية فى القرن السابع .. وكان هدفها تعليم الدين وأوليات الكتابة .

ومن قبل ذلك بمئات السنين .. وجدت رسائل الآباء إلى الأبناء .. كما وجدت تعاليم ونصائح الحكماء للأبناء .. والوصايا الدينية والتهذيبية .. وتقاسم التعبير عنها الشعر والنثر ولعبت دورًا خطيرًا فى تكوين شخصية الصغير .

ومن أشهر هذه المواعظ والوصايا : مواعظ لقمان - وإيسوب - وبتاح حوتب - وايبوور وغيرها مما يطلق عليه - الأدب التهذيبى أو التعليمى .

وإلى جانب ذلك اللون من الكتابة .. وجدنا القصة الخرافية والحكايات الخيالية المتنوعة كما وجدنا الأناشيد والأغانى وبعضها صاحب الألعاب التى يمارسها الأطفال على إيقاعات الموسيقى البسيطة .

وبالرغم من أن كثيرًا من نظريات الأدب الحديثة تحاول أن تُخرج من ميدان الأدب تلك الكتابات التهذيبية أو الوعظية .. غير

أنه من الظلم أن تقوَّم تلك الكتابات القديمة بمقاييس العصر الحاضر التى تميل إلى التخصص الدقيق ..

إن ابن الأنبارى مثلاً فى ( نزهة الألبا فى طبقات الأدبا ) يترجم للنحاة واللغويين والشعراء والكتاب .. وبهذا يُدخل العلوم اللغوية تحت مادة ( أدب ) بل أطلق الكثيرون الأدب على التأليف عامة فى أى فرع من فروع الكتابة .. ومنهم ياقوت الحموى فى ( معجم الأدباء ) على حين أطلقه بعضهم على النظم والثقافات الضرورية لفئة من المجتمع، كما فى كتب أدب الكُتّاب والوزراء والقضاة وغيرها.

ومن ثم يمكن أن نستخلص دلالتين للأدب عند القدماء عامة : معنى عام يدل على الإنتاج العقلى عامة مدونًا فى كتب - ومعنى خاص يدل على الكلام الجيد الذى يحدث فى متلقيه لذة فنية إلى جانب المعنى الخلقى .

ولهذا فإننا نميل عن يقين إلى الرأى الذى يعتبر تراث الحكم والأمثال والمواعظ القديمة جزءًا من الإنتاج الأدبى لهذه الشعوب سواء كتبت للكبار أم للصغار .. وسواء كتبت هذه الكتابات شعرًا أم نثرًا .. وسواء حفظها الناس أم التزموها فى سلوكهم وحياتهم[1] .

---

( ١ ) قد يساند يقينى هذا كثير من تجارب الإبداع المعاصرة التى تلجأ كثيرًا إلى التقريرية .. لكن ما أود إيضاحه أن المباشرة هذه كانت صالحة لظروف المجتمع القديم .. لكنها اليوم لا يمكن أن تقدم إلا بصورة مختلفة تحترم عقلية الطفل المعاصر الذى يشارك فى خلق عالمه فى صعوبة التسليم بالمواعظ والحكمة المجردة .

ونظرًا لأن علم التربية بأسسه الحديثة قد أرسى نظرياته فى التربية والتعليم على ضوء العصر .. فإن من الطبيعى أن ينظر إلى ما أنتجته العصور السالفة على أنه أدب ( تلقائى ) يعوزه الإطار أو الشكل أحيانًا .. بما يتناسب مع المتلقى كبيرًا كان أم صغيرًا .. على ضوء قدراته وعواطفه وغرائزه الخاصة .

ولهذا نقد الكثيرون نظرة القدماء إلى الطفل وأدبه .. واتهموهم بأنهم - وإن اعتبروا الطفل رجلًا صغيرًا - إلا أنهم لم يلتفتوا إلى قدراته وطبيعته وتكوينه وأن له عالماً خاصًا يختلف حتماً - عن عالم الكبار .. ويدلل هؤلاء على ذلك .. بأن اهتمام القدماء قد انصرف إلى الحِكَم والمواعظ والتهذيب أكثر من الجوانب الأخرى فى الأدب والمعرفة .. وأنهم إذا تجاوزوا ذلك يلجئون إلى الخرافات والحكايات يستمدون منها أيضاً نزوعها إلى فرض القوانين الأخلاقية وعرض العظات الإرشادية الثقيلة .

ويضيف العلماء المحدثون كذلك أن تلك الاتجاهات القديمة - وهى تسعى إلى تكوين الأبناء بما يجعلهم يشابهون الكبار فى كل شيء - إنما تترجم ما كانت تدعو به العقائد السائدة باعتبار الصغير جزءا من المجتمع المنتج وأنه يدخل - طبيعيًا - فى إطار العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والدينية للأسرة أو القبيلة أو العشيرة أو الطبقة الاجتماعية .. ويلتحم مع قضاياها كتفا بكتف .

وتلك النظرة بلا شك تنطوى على كثير من الصدق والتشخيص الدقيق .. إذا وضعناها خلال منظور عصرها .. ولم ننظر إليها من خلال عصرنا الذى تعقدت مفاهيمه وتطورت أساليب حياته .. بل تكاد - هذه النظرة تشى لنا بأن القدماء حاولوا - قدر استطاعتهم - أن يقتحموا ميدان التربية بما أتاح لهم تصورهم من الأدب والتهذيب والعلاقات المفيدة .

ولهذا فإننا نخلص - بعد هذا العرض السريع - إلى اعتبار ما أبدعه الأقدمون لصغارهم من أدب .. يناسب طبيعة العصر الذى أبدع فيه .. ويتلاءم مع طبيعة العلاقات الاجتماعية ونظرة المجتمع إلى هذا الكائن الصغير الذى هو عضو منتج على قدر طاقته مثله مثل الكبير ..

وسوف نتعرض لهذا الجانب بالتفصيل ونحن نتدارس أدب الصغار فى مصر القديمة .. وأيضًا ونحن نطوف مع التراث العربى القديم .

## الطباعة وأدب الصغار :

ويمثل اختراع المطبعة فتحًا كبيرًا فى انتشار الكتاب والوسائل التعليمية بصفة عامة .. بل أثر ذلك على كثير من جوانب الحياة المعاصرة .. لقد وجدنا أنفسنا أمام نظرية جديدة فى التربية - يبدو أنها انبهرت كثيراً باختراع المطبعة فقدمت لها ما رأته مفتاحًا مناسبًا

لعالم الطفل .. ودعت إلى سرعة إخراج كتب كثيرة له تستمد مادتها من الخرافات والأساطير والحكم والمواعظ كذلك .. ثم يتبلور هذا الأدب فى الغرب فى القرن السابع عشر ليستمد مقوماته من الحكايات الشعبية الشائعة يلعب فيها البطولة - الجن والشياطين والعفاريت والسحرة - وكانت أكثر هذه الحكايات قاسية تهدد الطفل بالعقاب والثواب - أى تدخل أيضًا ضمن الوعظ والتهذيب ولكن بصورة أعنف .

وحينما نحن النظر إلى هذه الصورة نجدها انعكاسًا حقيقيًا لما ساد المجتمع فى ذلك العصر .. حيث كانت السلطة - مهما صغرت أو كبرت - تمثل مظهرًا من مظاهر القوة والسيطرة .. وكان لابد لرجال التربية أن يؤكدوا ذلك حتى لو كانت موجهة إلى هذا الكائن الصغير الذى يفتح عينيه على الحياة .. ومن ثم مثلت له مضامين الخرافات والقوى الخارقة - تلك السلطة المسيطرة - التى يمكن أن تمنح الثواب وتفرض العقاب دون تردد .. وبحرية تامة وبحق مستمد من طبيعة وجودها .. وعلى الطفل - والكبير أيضًا - أن ينظر إلى أية سلطة نظرة الخنوع والطاعة والخوف كذلك .

ثم يشهد أدب الأطفال فى منتصف القرن الثامن عشر نهضة أخرى فى إخراج الكتب .. ويعد المؤلف الناشر جون نيوبرى ( ١٧١٣ - ١٧٦٧ ) أول من أصدر كتبًا للأطفال مصورة على ورق ممتاز فى إنجلترا .. حتى أنه فى عام ١٩٢٢ - تقديرًا لجهوده -

أنشئت مدلاة تحمل اسم نيوبرى لتمنح سنويًا لأحسن كتاب من كتب الأطفال يؤلفه أمريكى ..

وفى سنوات ذلك القرن كذلك ينادى الفيلسوف الفرنسى جان جاك روسو ( ١٧١٢ - ١٧٧٨ ) بآراء جديدة فى التربية فى إطار ( الإنسان الطبيعى ) .. فالإنسان لديه لا هو بالخير ولا هو بالشرير ، وهو يؤمن بالسلطة النابعة من الإرادة المشتركة التى تعبر عن الصالح المشترك .. ويرى روسو فى التربية أن نترك للطفل فرصة تنمية مواهبه الطبيعية دون أن تعطلها مؤثرات الحضارة الفاسدة فالتربية تنبع من داخل النفس ولا تأتى - فقط - من قراءة الكتب .. وهدف التربية الأسمى هو أن يتعلم الإنسان كيف يعيش .. وكيف يمارس حياته بحرية كاملة .

ويشهد القرن التاسع عشر اهتمامًا آخر بكتب الأطفال على يد الشاعر والروائى الدانماركى هانز كريستيان أندرسون ( ١٨٠٥ - ١٨٧٥ ) - الذى عاندته الحياة طويلا . . ولاقى صنوفًا من الفشل باحثًا عن عمل .. إلى أن واتاه الحظ فبدأ ينشر منذ عام ١٨٣٥ رواياته .. كما نشر أول مجموعة من الحكايات الخرافية أظهر فيها إمكاناته الفنية فى مجال الطفل .. وأشهر حكاياته - البطة القبيحة - عسكرى الصفيح الشجاع - عروس البحر الصغير - الحذاء الأحمر .

وربما ساعدت ظروف أندرسون على انتشار هذه الأعمال

واعتباره واحدًا من رواد أدب الطفل .. إلا أننا كذلك ينبغى أن ننظر إلى هذه الأعمال فى إطار تعاليم روسو - الذى دعا إليها فى عصره - فنجده يحاول الاقتراب منها لكن بشىء من التحفظ .. ولا يعنى هذا أننا ننكر على أندرسون ريادته فى زمان تتصارع فيه القوى السياسية والاجتماعية - وإن كان سبقه إليها وبجرأة أكثر جون نيوبرى .

ومنذ ذلك القرن .. والاهتمام بالطفل وأدبه يتخذ أساليب متعددة .. بقصد الوصول إلى عقلية الصغير .. وإذكاء روح المغامرة والثقة بالنفس لديه .

وكما هى الحال فى أدب الكبار .. ينقسم أدب الأطفال إلى ألوان مختلفة : القصة - الشعر - المسرحية - الكتابة الصحفية - الكتابة الوصفية والرحلات - الكتابة التاريخية وسير الأبطال .. إلى غير ذلك من ألوان الكتابة .

أما أهداف أدب الأطفال فهى لا تقع تحت حصر .. وهى تتراوح بين الأهداف الثقافية وتربية الخيال والذوق الأدبى .. والتعليم والتهذيب والأخلاق والترفيه والمتعة وغيرها .

## الطفل والأدب :

ربما نستطيع بقليل من الجهد التعرف على ميول ورغبات الكبير .. ومن ثم يمكن الكاتب أن يبدع أدبه للكبار دون أن

يتحسس طريقه إليهم كثيرًا .

ـ لكن الأمر يختلف حينما نقترب من عالم الطفل .. فى محاولة للتعرف على رغباته وميوله وتقديم الأدب الملائم له .. وقد نعود من كثير من رحلاتنا تلك بالخيبة والإخفاق .. ولعل هذا يفسر ذلك الجدل الدائم الذى يثور هنا وهناك عن : ماذا نقدم للأطفال .. ومن هو الطفل ؟ وكيف يتلقى من الكبير ما يقنعه ويمتعه ؟ .

وهذه الصعوبة نفسها هى التى دعت علماء النفس والتربية إلى اقتحام هذا العالم المجهول ومحاولة تحليل أساليب التعبير التى يعبرون بها لكى يتعرفوا – عن يقين غير قليل – على أسرار هذا العالم .

وينتهى علماء النفس والتربية إلى نتائج مرضية إلى حد كبير .

فهم يحددون الأطفال بأنهم الذين لم يتجاوزوا السادسة عشرة من أعمارهم .. وأنهم كذلك يحملون ميولاً واتجاهات وصفات خاصة متميزة ينبغى على من يكتب لهم أن يتفهمها خاصة أن الأدب يمثل الجسر الأول الواصل بين الكبير والصغير .. فى صورة الكتاب أو المجلة أو وسائل الإعلام المختلفة .

ولأن الثقافة تبدأ بالطفل – كما يقولون – فإن الأدب يجىء فى مقدمة الوسائط الثقافية وهذا الأدب يوجد معظمه فى بطون الكتب .. لهذا تمثل علاقة الطفل بالكتاب المفتاح الطبيعى إلى أبواب التعليم والتثقيف . ومن ثم تبرز أهمية القراءة فى مجال

الطفولة وكذلك أهمية الكتابة إليها .

ويمكن فى هذا الصدد أن نؤكد باطمئنان كبير أن الكتابة للطفل عمل شاق .. يتطلب قدرات خاصة لدى الكاتب .. وقد سئل الكاتب الإنجليزى صمويل بيكت : لماذا لا تكتب للأطفال فقال : لأننى لم أنضج بعد .!

ولا شك أن مثل هذه الإجابة تضعنا أمام دهشة مسئولة صادقة حقًا .. فقد أدرك الكاتب الكبير دور كاتب الأطفال .. وأدرك أيضًا أن الطفل ليس تلك الشخصية التابعة المنقادة .. وإنما هو فى الحقيقة قارئ نقّاد .. ومتفرج نقاد .. لا يمكنه أن يرائى أو يفصح عن شىء لا يعتقده ولا يؤمن به .

وتُروى فى هذا الصدد تلك القصة التى كتبها ( هانز كريستيان أندرسون ) بعنوان ( ملابس الإمبراطور الجديدة ) لتقوم دليلاً على صدق هذه المقولة .

وتحكى هذه القصة أن إمبراطورًا أراد أن يلبس ملابس جديدة لم يلبسها غيره ، فتسابق إليه الخياطون من جميع بقاع الإمبراطورية يعرضون عليه الأقمشة الفاخرة من ذهب وفضة مطرزة فريدة تفوق كل وصف ، غير أن الإمبراطور كان يرفضها جميعًا . وظل الإمبراطور على تلك الحال حتى جاءه رجل يعرض عليه قماشًا سحريًا لا يراه إلا الأذكياء ، أما الأغبياء فلا يستطيعون رؤيته ، وقَبِل الملك ذلك العرض ، وجاء الرجل بمغزله ، وظل يعمل فى

القصر ، وكان الإمبراطور يدخل عليه كل يوم فلا يرى شيئًا على المغزل ، لكنه لم يكن يفصح عن ذلك حتى لا يقال عنه إنه غبى . بل على العكس ، كان يبدى إعجابه بالقماش الذى لا يراه ، وكما فعل الإمبراطور فعل وزراؤه وحاشيته حتى لا يتهموا بالغباء ، والرجل يعمل كل يوم على مغزل خالٍ تمامًا ، ويتلقى عبارات الإعجاب من الإمبراطور ووزرائه .

ويعلن الرجل الانتهاء من غزل القماش ، ويبدأ فى تفصيل الحلة للإمبراطور وسط الإعجاب الكاذب من الجميع ، وتنتهى مهمته ، ويجزل الإمبراطور له العطاء والهدايا ..

ويقرر الإمبراطور أن يلبس حلته الجديدة ويسير بها فى موكب كبير فى شوارع العاصمة ، وتحتشد الجماهير لمشاهدة - الحلة المعجزة - التى لا يراها الأغبياء ، ويسير الإمبراطور وحوله حاشيته ، وتتعالى صيحات الإعجاب من الحشود على جانبى الطريق .

وفجأة يصرخ طفل « يا إلهى .. إن الإمبراطور يسير عاريًا .. إنّ الإمبراطور يسير عاريًا ! » وسرعان ما وجد صراخ الطفل صداه ، فتتصاعد أصوات الجماهير لتكرر كلام الطفل ، وتنكشف الخدعة الكبيرة !

ذلك هو الطفل - المخلوق - الذى لا يعرف الرياء إلى قلبه سبيلا ، فإذا شاهد مسرحية لا تعجبه تململ فى مقعده ، وإذا شاهد

فيلمًا رديئًا فضّل عليه النوم ، وإذا قرأ كتابًا مملا أو مجافيًا للحقيقة تركه .. ذلك هو الطفل القارئ النقّاد ، المشاهد النقاد .

من هنا كان التعامل مع الطفل يتسم بحساسية دقيقة ، ويطرح عددًا من الأسئلة - خاصة فى مجال الكلمة المكتوبة أهمها :

من يكتب - ولمن يكتب ، و ماذا نكتب ، وإلى أى شيء نهدف ، ومتى نقدم الكتاب للطفل وكيف نقدمه ، وما اللغة المناسبة لمراحل الطفولة ، إلى آخر علامات الاستفهام المعروفة ..

إن الكتابة موهبة قبل كل شيء ، وإذا كانت الموهبة تنضج وتنمو بالعلم والخبرة فإنها ضرورة بالنسبة لكاتب الأطفال الذى يتمثل فى تكوينه الثقافى دعائم ثلاث رئيسية تقوم على اعتبارات ثلاثة هى :

١ - اعتبارات تربوية وسيكولوجية خاصة بتعامل الكاتب مع الطفل فى أعماره وبيئاته المختلفة .

٢ - اعتبارات أدبية وفكرية تؤهله للاتصال بالطفل اتصالاً وثيقًا شائقًا .

٣ - اعتبارات فنية خاصة بالكتاب وسيطًا للطفل .

وإحداث نوع من التوازن بين تلك الاعتبارات يفسر تمامًا إلى أى مدى يقبل الطفل من الكاتب ذلك العطاء اللغوى والفنى معًا .

وهناك من يؤكد أن الطفل يولد مزودًا بحاجة فطرية إلى التعبير ، وبميول واضحة إلى محاكاة ما يستمع إليه من أصوات تعد

اتجاهات إلى المناغاة ، وتلاعبًا بالأصوات ، كما أنه يولد أيضًا مزودًا بقدرة فطرية على تعلم اللغة ، واكتساب مهارتها .

إنه يلجأ إلى التعبير عن ذاته بالصياح .. وسرعان ما يترجم ذلك فى بضع كلمات ، ثم يبدأ فى استخدام الحديث التقليدى الذى يبدأ بالكلمات البسيطة فالمركبة .

لقد قام كثير من الباحثين بالتعرف على خصائص لغة الطفل المعاصر ، بقصد التعرف على قاموسه اللغوى ، وعلى أكثر الكلمات شيوعًا فى حديثه ، وعلى مفاهيمه المختلفة ، والمعانى التى يقصد إليها حين يعبر ، والتى تختلف بالتأكيد عن مثيلتها عند الكبار ، ويشير الدكتور محمد محمود رضوان إلى بعض تلك الخصائص فى كتابه ( الطفل يستعد للقراءة ) على هذا النحو :

١ - يغلب على لغة الطفل أن تتعلق بالمحسوسات لا بالمجردات .

فالطفل أول ما يتعلم الحديث يبدأ بما تقع عليه حواسه ، وبما يطلق عليه علماء اللغة ( أسماء الذوات ) فى مقابل ( أسماء المعانى ) .. فهو يتعرف فى البداية على ( بابا ) و ( ماما ) و ( لبن ) و ( رغيف ) .. إلخ ثم على (أرنب ) و ( قطة ) و ( دمية ) و ( كرسى ) .. إلخ ثم يتبع ذلك الأفعال .

أما أسماء المعنويات مثل ( حب ) و ( حنان ) و ( فرح ) و ( نسيان ) .. إلخ فتختلف عن سابقتها إذ تقتضى خبرات معينة

فى مواقف تهيئ للطفل عملية ( التعميم ) - وتلك القدرة لا تأتى للطفل إلا متأخرة .. ولذا فمن العبث أن تشتمل المادة القرائية لطفل الابتدائى على كلمات مثل ( الحرية ) و ( الكرامة ) و ( الواجب ) .

٢ - يغلب على لغة الطفل أن تتركز حول النفس :

وعلة ذلك أن الطفل قبل سن دخوله المدرسة غير اجتماعى ، وإنما تغلب عليه روح الأنانية ويصفه آخرون أنه شرير بطبعه .

وفى هذه السن قد يلعب الطفل مع غيره من الأطفال ، لكنه سرعان ما ينفصل عنهم عقب تنافس أو شجار ، أو لأنه وجد غيرهم ، وقد يشترك مع غيره باسمًا لكنه سرعان ما يغادر أصدقاءه باكيًا لأنهم لم يحققوا له رغبته الخاصة فى الاستئثار بشىء ما .

وإذا راقبنا الطفل فى سن دخوله المدرسة لفت نظرنا فى حديثه تكراره للضمائر التى تدل على المتكلم مثل ( أنا ) .. والتاء فى مثل ( لعبت ) والياء فى مثل ( ضربنى ) .. بل نجد الطفل يكرر كلمة ( أنا ) حيث يمكنه الاستغناء عنها بمجرد العطف ، وهو يفعل ذلك إمعانًا فى إحساسه بنفسه وتأكيدًا لذاته .

٣ - يغلب على لغة الطفل البساطة .. وعدم الدقة والتحديد .

٤ - للطفل مفاهيمه وتراكيبه الخاصة فى الكلام .

ومن ذلك مثلا أن كلمة ( بحر ) تعنى للطفل المصرى فى سن الثالثة أو الرابعة أى كمية من الماء تجمعت فى مكان ما سواء فى

الحمام أو فى أرض الحديقة ، فإذا بلغ الطفل السادسة فإن الطفل يعنى بها ( الترعة ) أو ( النهر ) أو ( البحيرة ) أو ( البحر ) .

وينتهى الدكتور محمد محمود رضوان إلى نتائج تستحق التقدير .. وتفتح الطريق أمام كاتب الأطفال فى استخدام ما يشبه قاموس اللغة الملائم الذى يخاطب به الطفل ، وتعطيه مؤشرات عن تلك المفاهيم الأثيرة لدى الطفل .

وهناك ملاحظة هامة فى هذا المجال تتعلق بلغة الطفل التى ينبغى أن يقرأ بها كتبه ، فكثير من كُتاب الطفل يلجأ إلى ( اللغة العامية ) توهمًا أنها أصلح الأدوات المؤثرة فى ثقافة الطفل ، ولا ينطبق ذلك على الكِتاب فحسب ، بل نجده كذلك فى معظم وسائل الإعلام والثقافة التى تخاطب الطفل .

ولنا أن نتصور ذلك الطفل المسكين الذى نوقعه فى متناقضات نفسية وتربوية دائمة ، فهو يذهب إلى مدرسته ليتلقى تعليمه فى كتبه المكتوبة باللغة العربية الفصحى المبسطة ، ويحفظ أناشيده بها كذلك ، ثم يجلس أمام الشاشة الصغيرة ليفاجأ بلغة أخرى مختلفة ، ويجدها كذلك فى المذياع حينما يستمع إلى برامجه الخاصة .

إنه ولا شك مسكين أمام ذلك ( الانشطار ) اللغوى الذى يعانيه ، فلماذا لا تكون اللغة الفصحى المبسطة هى لغتنا فى مخاطبة الطفل ، ولماذا يخشى كاتب الطفل استخدام هذه اللغة ، إنه لن يكلف نفسه مشقة البحث عن الكلمة المناسبة إذا هو وضع نفسه

مكان القارئ الصغير ، واستخدم القاموس الملائم له !

لقد وضعت بعض المحاولات لإنشاء قاموس شائع بالمفردات التى يتقبلها الطفل ومع تحفظى الشديد على مثل هذه المحاولات .. إلا أنها محاولات تستحق التقدير ، فماذا لو جرب الكاتب أن يكتب ما يريد فى أبسط المفردات فبدلاً من أن يقول ( ياكل ) بالعامية .. يضع الهمزة على الألف ليقول ( يأكل ) ، وبدلا من ( ياخد ) يقول ( يأخذ ) بل يبتعد عن مشاكل اللغة المعقدة التى يغرق فيها الكبار أنفسهم .

إن اللغة العربية تحتوى على مفردات ومترادفات ثرية قابلة للاختيار والاستخدام الأنسب فى أى مجال . بعكس اللغة الأجنبية مثلا .. فقد تقابل مفردة عربية واحدة عدة مفردات من اللغة الأجنبية مثل : I have eaten it تعنى باللغة العربية ( أكلتها ) : كلمة واحدة فى مقابل أربع كلمات .. مما يحفز على اكتشاف ثراء تلك اللغة الأصيلة وجذب انتباه الطفل إليها من أيسر الطرق ..

كما يتصور بعض الباحثين أن كتاب الطفل مرتبط بسن معينة من عمر الطفل ، تلك السن التى تؤهله للدخول إلى المرحلة الأولى من الدراسة . وهذا اعتقاد خاطئ يؤدى - منذ البداية - إلى قطع العلاقة المرتقبة بين الطفل والكتاب ذلك أن الطفل ينبغى أن يكتسب تلك الخبرة المتمثلة فى علاقته مع الكلمة المكتوبة قبل أن يدخل المدرسة .

ولعل ذلك يفسر ضرورة أن ينشأ الطفل فى بيئة تشجع على القراءة ، وفى بيت لا يخلو من مكتبة للكتب ، فيشاهد الكبار كيف يتعاملون مع الكتاب ، ويحاكى دورهم فى ذلك الصدد بنفس العناية والاهتمام .

ومثل ذلك الطفل يذهب إلى المدرسة مسلحًا بتلك الخبرة الخاصة ، فيقبل بسعادة وشغف على كتابه المدرسى .

إن مرحلة ما قبل القراءة مرحلة هامة فى تكوين قدرات وملكات الطفل ، وإذا تراجع الكتاب عن دوره فى هذه المرحلة ، فسيؤثر ذلك بالضرورة على تلك القدرات والملكات ..

وليس المقصود هنا أن يكون الكتاب بالمفهوم العام المتعارف عليه ، وإنما ينبغى أن يفى بحاجة تلك المرحلة من العمر ، فهو يقترب من الألعاب ، وتساهم الحواس المختلفة فى التعرف عليه ، لقد أدرك ذلك كثير من المتخصصين فى الدول المتقدمة فقدموا الكتاب المصوَّر والكتاب المجسَّم والكتاب الموسيقى والكتاب المطرَّز على ورق مقوى يقاوم عبث الأطفال ، ويقسم الباحثون سلوك الأطفال فى سن ما قبل القراءة إلى مراحل مختلفة أهمها :

١ - مرحلة التناول باليد :

حيث ينظر الطفل إلى أى شىء حوله فيضعه فى فمه ، ويمسكه بيده ، ويسقطه على الأرض ، وينتزع الورق ويمزقه .

٢ - مرحلة الإشارة إلى الصور :

وتبدأ هذه المرحلة مع بداية الشهر الخامس عشر من عمر الطفل ، وهنا تقوم الأم بدور رئيسى حيث تقلب له صفحات الكتاب فى حين يستمتع الطفل بمشاهدة الصور المألوفة ( الكرة - القط - المقعد ) وأفضل الكتب لهذه المرحلة تلك المصنوعة من صحائف من القماش أو أية مادة تقوى على تحمل ما يوجهه الطفل إليها من سلوك عنيف .

٣ - مرحلة تسمية الأشياء :

وتبدأ مع بداية الشهر الثامن عشر .. حيث يسأل الطفل الكبار عن الصور : ما هذا ؟

أو هو يبدأ يقلّد أصوات الحيوانات التى يرى صورها .

ويبدأ الطفل هنا فى إكتساب معلوماته عن طريق الكتاب .

٤ - مرحلة حب القصص القصيرة البسيطة والكلمات المنغّمة :

وتبدأ بعد تمام عامين من عمر الطفل وتمتد إلى ثلاثة أعوام ، وفى هذه المرحلة يسمى الطفل عملية النظر إلى الكتاب ( قراءة ) .. ويحب أن يرى شيئا يحدث فى كل صورة يراها ( مثلاً : ولد يلعب بالكرة ، كلب يجرى وراء قطة ) ..

وفى هذه المرحلة أيضا يظهر الطفل إدراكه للحروف باعتبارها شيئا آخر يغطى جانبًا من الكتاب .

٥ - مرحلة البحث عن المعانى :

ما بعد ثلاث سنوات حيث تبدو الصور وكأنها أشياء حقيقية حية يتعامل معها ويتأثر ببكائها وفرحها .. وفى هذه المرحلة يستمتع الطفل بالأغانى المسجوعة والأناشيد ، ويهتم بالمعلومات عن أشياء يود التعرف إليها مثل السيارة والطيارة والقطار ..

ويبدأ الطفل فى تخصيص مكان لحفظ كتبه .

٦ - مرحلة سرد القصص وملاحظة الحروف : وتأتى مع العام الرابع .

٧ - مرحلة المهارات .. ما بعد الرابعة إلى الخامسة حيث يحب الكتاب الذى يحتوى على حقائق أو خيال .. أو صور كاريكاتورية .

أما مراحل ما بعد القراءة فهى أربع أساسية :

( أ ) مرحلة اكتساب العادات الرئيسية للقراءة .. وتمتد من السادسة إلى السابعة حيث يكتسب الطفل قدرته على مزج الكلمات وتكوين الجمل .

(ب) مرحلة النمو السريع فى إتقان المهارات الأساسية للقراءة .. وتمتد من الثامنة إلى العاشرة وفيها ينتقل الطفل من تعلم القراءة إلى القراءة للتعلم ، وتزداد سرعة الطفل فى القراءة الجهرية والصامتة ، وينبغى أن يكون الكتاب هنا شائقًا ، ميسَّرا فى لغته .

(جـ) مرحلة التوسع فى القراءة .. وتمتد حتى الرابعة عشرة .. وتتكون فيها الثروة اللغوية للطفل .

( د ) مرحلة النضج :

وتمتد إلى السادسة عشرة وفيها تأخذ اهتمامات القراءة فى التخصص .. وهكذا نقترب من عالم الطفل بما يتيح لنا أن ندخله ونحن نعرف عنه الكثير .

* * *

وكان لابد لنا من القيام بهذه الرحلة الموجزة .. لكى ننتحي فى الخطوة القادمة زاوية من زوايا هذا العالم وهو عالم الشعر .. نجوب آفاقه .. وتاريخه مع الطفل - ما وسعنا الجهد والوقت - .

# الطفل .. والشعر

## تمهيد فى عالمى الشعر والموسيقى :

يقرر ( نيتشة ) فى شىء من التأكيد والسعادة أنه : لولا الموسيقى لكانت الحياة خطأ !

ولقد اهتدى الإنسان القديم إلى الموسيقى قبل أن يهتدى إلى اللغة .. بدأها بالصياح على زميله من أجل أن يستجيب له أو يقضى له حاجته .. وهذه صورة بسيطة تابع الإنسان القديم صداها فى عالمه .. حتى اعتقد أن بداخل الأشياء الطبيعية مثل الشمس والقمر والأشجار والحيوان والنار . آلهة طيبة وأخرى شريرة .. ولكى ترضى هذه الآلهة كان الناس يصيحون إليها ويرقصون .!

ثم بدأ الناس يصفقون بأيديهم بمصاحبة الصياح والرقص – ثم بمصاحبة كلمات مغناة فيما بعد – ويستغرق أحدهم فى نشوة غامرة .. فيضرب جذع الشجرة بعصا .. لتظهر أول آلةموسيقية .

ثم يكتشف أحد الناس بعد ذلك أن الريح تحدث صوتاً متميزاً

لطيفًا حينما تمر فى نفق جبلى ، بل يتغير هذا الصوت بتغير طبيعة هذا النفق .. كما يلاحظ صياد زكى أن النقر على أوتار قوسه يحدث صوتًا مختلفًا جميلا .

واليوم تُبنى جميع الآلات الموسيقية على هذه الأسس الثلاثة : الضرب - النفخ - النقر . وهذه الآلات نفسها هى التى تمتعنا بالأنغام الموسيقية العذبة .

ولابد أن الإنسان حاول كثيرًا أن يحاكى تلك الأصوات والآلات بفمه .. لكنه استعاض عنها باللغة .. فكون كلماتها بأنغام وأوزان خاصة .. ووضع لها مقاييسها الخاصة التى استعيرت من إيقاعات الموسيقى .. فالنطق ما هو إلا مجموعة من الحركات والسكنات التى تتواءم مع الذوق ومع استعداد حاسة السمع .

ولهذا اعتبر الشعر من الفنون الجميلة .. بل انتمى إلى فنون الزمان ( الجمال المتحرك ) التى تشمل الموسيقى والشعر والغناء والرقص .. على حين اشتملت فنون المكان ( الجمال الثابت ) العمارة والتصوير والنحت .

ويقرر العلماء أن الوظيفة الحسية والوجدانية للموسيقى واضحة بينة .. وليس غريبا أن تعبر عن انفعالات داخلية .. مادامت هذه الانفعالات نفسها هى سبب وجودها وبعثها .

ولا يختلف أحد على أن الموسيقى تهدف دوما إلى الإفصاح عن بعض الأحاسيس وإيقاظ بعضها الآخر .. ومن ثم اهتم الموسيقيون

دائما بالبحث عن النبرة الصادقة .. وعن صدى نبضات القلب فى هذا الفن الذى يعبر بلا كلمة مفهومة .. ويحمل ميزة خفية أكثر غموضًا من مجرد إثارة الوجدان .. وهى القدرة على خلق صور ..

إن هذه القدرة الغامضة للموسيقى على خلق الصور .. نجدها على الطرف الآخر أقل غموضًا وأكثر منطقية فى الفنون التى تخضع للتفسير والتعليق مثل الرسم والنحت والشعر .. وما تفعله الموسيقى بلا شك يتصف بالروعة والعجب معا .. لأنه يتم عن طريق قوًى خفية للصوت بدون أن يُخطَّ سطرٌ واحد .. وبدون أن تستخدم كلمة واحدة .. وهذه القوى الخفية قد تقود الإنسان إلى الحلم وإلى أفكار كثيرة تتعلق بهذا الحلم .

ومن ثم يقترب جوهر الموسيقى من جوهر الشعر الذى يجتهد فى تحويل الواقع إلى الحلم .. وفى ترطيب الحلم بالصورة والإحساس لعله يصبح واقعًا .. وهنا تتبلور أهمية الكلمة ويصبح لها المقام الأول لحمل تلك الأحاسيس التى وإن وقعت بعض الوقت فى غموض القوى الخفية .. لكنها سرعان ما تبلغ لحظات الكشف والتنوير فيحسّها الإنسان بكامل حواسه .

والتوافق بين الكلمة الشعرية والموسيقى تقوم على أسس نفسية وفنية معروفة .. وإذا لم يكن هناك توافق مطلق بينهما ، فسوف تبدو الموسيقى وكأنها على غير صلة بالكلمة .. وينعدم عندئذ التأليف بين

عنصرى الإحساس - الإحساس بالكلمة والإحساس بالنغم - بما يجعله مبلبلا .

وكلما اقترب كل من الشعر والموسيقى إلى محاكاة الطبيعة كان كل منهما أكثر صدقاً مع نفسه وصدقاً مع المتلقى .

ولا يعنى هذا أن التطابق بين الفنين مطلق لا ينفذ منه الهواء .. لكنهما مهما افترقا .. فإن ملامحهما الشكلية - على الأقل - تردهما إلى تلك الأرض المشتركة التى تتجلى فى كثير من المظاهر .

فالأصوات الموسيقية - كالكلمات - تتألف منها عبارات وجمل وفقرات .. والحركات الموسيقية الكبيرة ما هى إلا تتابع فقرات يتصل بعضها ببعض اتصالاً منطقيًا .. تمامًا مثلما تتصل أبيات القصيدة الواحدة أو الدراما المسرحية .

والأدب عامة يرقم بعلامات الترقيم ( كالشولة وعلامة الوقف والنقط وما إليها ) وقد اتخذ الشعر علاماته الخاصة - وخاصة ( الشعر الحديث ) - أو هو تخيرً من العلامات ما يلائم طبيعته ، لأنه يحاول أن يقترب من لغة الحكى المعاصرة .. بل تكاد تلك العلامات تمثل لدى بعض الشعراء جانبا مهمًا من التشكيل الشعرى أو مفاتيح الدخول إلى عالم القصيدة .

ولا يكاد الأمر يختلف فى الموسيقى .. فهى ترقم كذلك بواسطة تآلفات متتابعة تعرف باسم القفلات .. (Cadences) .

أما الرنين الخاص بكل قفلة فيعرفه كل دارس للموسيقى ..

ويمكن أن نقول فى هذا المقام إن القفلات تنقسم إلى ثلاثة أقسام عريضة :

قفلة توحى بشعور الراحة ، وقفلة توحى بعدم الانتهاء .. وقفلة توحى بالمفاجأة أو المقاطعة وهى - بمثابة نهايات الكلام فى الشعر - تعبير عن الحالة النفسية ..

وهناك أيضا تشابه إيقاعى نسبى فى نهاية العبارات مثل نهايات الأبيات فى الشعر .. وهذا البناء الشكلى المتشابه بين عالمى الموسيقى والشعر يؤكد اقترابهما وامتزاجهما .. ويؤكد كذلك أن هذا الكون الذى يحيط بنا كون موسيقى شعرى .. فهو فى حقيقة الأمر عالم رنان .. يتألف من سيمفونية طبيعية منسجمة مع أجهزة الإنسان الحسية فتستجيب لها بالاضطراب والتنافر أو التمازج والاستمتاع .. حتى يمكننا أن نقول بأن السكون المطبق ليس له وجود .

وإذا كانت الموسيقى تقاس بوحدات الإيقاع (Rythme) فإن الشعر كذلك يقاس بموازين إيقاعية يطلق عليها عَروض الشعر .

## الطفل - الشعر - الموسقى :

يقول كثير من علماء الجمال وفلاسفة الإبداع بأن الطفل يولد ودا بحاسة سادسة يدرك بها ما فى الأعمال الفنية من سحر ...

وجمال .. ويستجيب إليها .. ويتوقف نمو الحاسة على مدى رعايتها وإرهافها للتذوق .

كما يرى فريق آخر أن الإحساس بالجمال أمر اعتبارى شخصى نختلف فيه جميعًا .. وتتوقف قدرتنا على هذا الإحساس على كثير من العوامل الشخصية والمكتسبة من التجارب التى يعيشها الإنسان .

لكن الفريقين يتفقان بالنسبة للطفل على أن النغم وموسيقى الكلام يسبقان إدراكه لمعانى هذا الكلام وألفاظه المفردة .

فالطفل فى سنواته الأولى مرهف الحواس .. وربما كانت حاسة السمع أكثر حواسه إرهافًا .. إذ يتلقى سمعه - تلقائيًّا - مجموعة متباينة من الأصوات لا تقع تحت حصر .. وهو لا يزال فى مهده غير قادر على الإدراك البصرى لمن حوله .

وأول صوت يدركه الطفل ويتبينه هو صوت الأم - خاصة حينما يبكى وتندفع إليه أمه تربت فوق صدره أو تمسك بمهده الصغير فى هزة رقيقة مصحوبة بموسيقى صادرة من قلبها تنسجم مع إيقاعات المهد الصغير ، وتسمى هذه الأنغام العذبة التى تصدرها الأم ( المناغاة )[1] ..

إن الطفل الصغير يدرك بأذنيه صوت أمه المنغَّم .. فيكف عن

( ١ ) يمكن أن نضيف فى هذا الصدد ما يسمى بأغانى المهد ، وهى أناشيد قد تعتمد على تكرار كلمات أو جمل بعينها قد تخلو من المعنى لكنها تلتزم إيقاعًا بسيطًا منسجمًا يمتع الطفل ..

البكاء لإحساسه بالأمان .. وإحساسه أيضا بأن شيئًا جميلًا سوف يهبط عليه بعد حضور أمه .

وهذا المران السمعي هو الذى يعد الطفل فى سنواته الأولى للتمييز بين الأصوات المنسجمة .. ولتلقى الكلام الموزون على إيقاعات الموسيقى فى سعادة وسرور - فيما بعد .

إن التلقائية الأولى لدى الطفل لتقبل الموسيقى والشعر .. أدركها كثير من المفكرين ورجال التربية .. واعتبروها عنصرًا هامًّا من عناصر التربية الوجدانية والثقافية معًا .. وقد عبر ( روسو ) عن هذا الجانب الذى يتعلق بالشعور الإنسانى فى قوله :

مهما اختلفت الوجهات التى نوجه إليها الطفل .. فإن الطبيعة من حوله تدعوه - أولا - إلى الحياة الإنسانية .. إن الحياة هى المهنة التى أريد أن أعلمه إياها .. فإذا خرج من يد المعلم فلن يكون قاضيًا أو جنديًّا أو رجل دين .. وإنما يكون أولا .. إنسانًا !

وما من شك أن هذا الجانب الإنسانى ما هو إلا قاعدة الإبداع الشعرى فى كل زمان وفى كل أمة ..

لقد أدرك الشعراء - منذ كان الشعر - تأثير هذا اللون من الأدب على الأطفال .. فالشعر يكاد يترجم حركات الطفل التلقائية .. ولغته الأولى وأجهزة وعيه وشعوره .. إنه يستجيب له استجابات ممتعة حميمة .

وفى الدراسات الحديثة للإيقاع .. يتأكد دوره فى العمل والإنتاج

والإقبال على الحياة لأن الإيقاع بطبيعته مثير قوى لمناطق الحس والمشاعر الإنسانية ... والكلمة التى تُصب فى الإيقاع تملأ فراغ الوجدان بالحث على الفعل والنمو العقلى والعاطفى والأخلاقى .

وفى مجال الطفولة لا يختلف الأمر كثيرًا . فنحن نلاحظ أن الطفل كثيرًا ما يتعلق بالنص الذى يحتوى على إيقاعات راقصة متكررة .. فالجملة الإيقاعية التى تقابل جملة تماثلها تقريبًا فى الحروف تصبح أعلق بذهن الطفل وأكثر التصاقًا به .. لأنه يغنيها ويرقص عليها أحيانًا ويحفظها بيسر وسهولة .. وبالتالى يتحقق النجاح للشاعر حينما يدق على مشاعر الطفل بإيقاعات مبسطة .

إن الشعر لابد أن يستفيد فى مجال الطفولة من عالم الطفل نفسه . وإذا أراد أن يعرِّفه على عالم آخر .. عليه أن يمهده إليه فى حب وتشويق ..

والنغم الشعرى قريب جدًّا من مشاعر الطفل الداخلية المنسجمة .. ويمكن أن نلاحظ ذلك عنده حينما نطالبه مثلًا بتركيب أجزاء مفككة فى لعبته بحيث تأخذ شكلًا منسجمًا .. إن الطفل لا يلبث بعد مران قليل أن يكوِّن تلك الأجزاء المتناثرة فى شكل ( منغَّم ) منتظم - ينتظمه إيقاع نفسى وفنى - لأنه استجاب لمشاعره الداخلية المنسجمة ..

لكن .. إلى أى حد فطن الإنسان على مدى الزمان الطويل إلى حقيقة وجدان الطفل ومدى ارتباطه بالشعر .. هل استطاع الشعراء

حقًّا أن يقدِّموا للطفل ما يمتعه ويهذب سلوكه ويقوم ثقافته .. ؟

سوف تكون الصفحات التالية رحلة بحث وتنقيب وراء الإجابة عن هذه الأسئلة من أجل هذا الكائن المعجز المشاكس - الطفل - !

# شعر الأطفال فى مصر القديمة

أجمل الحكيم المصرى القديم ( بتاح حوتب ) دستوره فى التربية حين قال :

« إذا نَضِجْت .. وكونت دارًا .. وأنجبت ولدا من نعمة الإله .. واستقام لك هذا الولد .. ووعى تعاليمك .. فالتمس له الخير كله .. وتحر كل شىء من أجله .. فإنه ولدك .. وفلذة كبدك .. ولا تصرف عنه نفسك » .

- وجاء فى تعاليم مصرية متأخرة .. ما يؤكد مسئولية الآباء فى تربية أبنائهم على هذا النحو : « إنه تمثال من حجر ذلك الابن الذى لم يعلمه أبوه .. » .

وكان المصرى القديم يحرص على كثرة نسله .. ويعمل على حسن تعليم أولاده وتربيتهم .. وما كان يعرف سبيلًا إلى السعادة من حُرم نعمة الإنجاب غير اللجوء إلى التبنى .

ولم يكن هذا الحرص إلا ترجمة تلقائية لرغبة الآباء فى أن يكون أبناؤهم عنصرًا من عناصر الإنتاج فى المجتمع - كما هى الحال الآن

فى تمسك الفلاح المصرى البسيط بكثرة النسل وتشككه فى الوسائل الميكانيكية الحديثة أو ما يسمى بالميكنة الزراعية .

ويذكر تاريخ أواخر الدولة القديمة أنه حين استبد الضعف والوهن بالبلاد .. أخذ الحكيم المصرى ( إيبوور ) يبصر أولى الأمر بما ساقته تلك الحال من قلة المواليد قائلا :

« حقًّا لقد غدت النساء مُقلات .. وما من واحدة تحمل .. وما عاد الإله – خنوم – يبنى أطفالا ! » .

أما العناية بالأطفال .. فلم يكن الرجل وحده من يقوم بهذه المهمة .. فقد شاركت الأم زوجها فى ذلك مشاركة فعلية .. ولعلها بدورها هذا قد تبوأت مكانتها الاجتماعية والأسرية كذلك ، وأشاد بدورها كثير من الكتاب فى الأدب المصرى القديم .. ومن ذلك ما جاء فى تعاليم الحكيم آنى : « اعط المزيد من الخبز لأمك .. واحملها كما حملتك .. لقد كنت عبئاً ثقيلاً عليها . وحين ولدت بعد تمام أشهرك حملتك على كتفيها .. وظل ثديها فى فمك ثلاث سنين كاملة ولم تكن تشمئز منك .. وهى التى أدخلتك المدرسة لتتعلم الكتابة .. وظلت تنتظرك كل يوم .. وتحمل إليك الخبز والجعة من منزلها .. وعندما تصبح شابًّا وتتخذ لك زوجة .. وتستقر فى منزلك .. فضع نصب عينيك كيف ولدتك أُمُّك .. وكل ما فعلته من أجل تربيتك .. ولا تلجئها إلى لومك أو الشكوى إلى الإله . ! » .

وقد صور المصريون القدماء السماء على شكل امرأة – ورمزوا

بها للإلهة ( تحوت ) التى اتخذوها إلهة للسماء – وهم بهذا يؤكدون فضل الأم وحنانها وتضحيتها فى تربية أولادها ..

أدرك المصرى القديم – إذن – أهمية أن يعنى بتربية أبنائه .. وكثرت فى ذلك الأمثال والرسائل التى تحض الآباء على تثقيف أبنائهم وتعليمهم وتهذيبهم فى كافة مناحى الحياة وما صوره فنانو تل العمارنة مما كان بين أخناتون وبناته من تعاطف وحب وحنان أشهر من أن يذكر .. وقد أطلق المؤرخ N.Davies على أخناتون فى هذه الصورة – أول رجل يحب الأطفال ( أو ) أحب الناس إلى الأطفال – وتجاوز ما اشتهر به أخناتون من أنه ( أول فلاسفة التاريخ ) .

وهناك ملاحظة أبداها بعض المؤرخين وتشكك فيها بعضهم .. تتعلق بأن المصريين القدماء – مثلهم مثل كثير من الشعوب .. كانوا يؤثرون الولد على البنت فى كثير من الأمور .. فالأب يشرك ولده فى متعة الصيد .. وفى أعمال الزراعة .. ويؤثره أيضا فى التعليم .. وإن صح ذلك فهو يؤكد لنا استمرار هذا الإيثار فى القبائل العربية – فيما بعد – وبعض مناطق الوجه القبلى .. ومع هذا فإن المصرى القديم كان يرحب بقدوم الولد أو البنت بنفس الحب ونفس الإيثار .. ونفس السعادة .. بل نجد الآباء والأمهات – فى نقوش كثيرة قديمة – كانوا يشاركون أبناءهم من الجنسين متعة اللعب .. والغناء .. والرقص والضحك .. وكان صدى

هذا واضحا لدى الأطفال فى شعورهم بالسعادة والإقبال على طاعة الوالدين ..

ويعتبر المصريون القدماء فترة الطفولة من أدق الفترات التى يحرصون على الاهتمام بها .. لإيمانهم بأهمية تنشئة أبنائهم تنشئة جيدة صالحة .

## التربية والتعليم فى مصر القديمة

إن الغريب فى مصر القديمة أن التعليم فيها يتضمن ست مراحل تعليمية وتثقيفية هى :

١ - مرحلة تعليمية أولية يتلقى فيها التلميذ تعليمه فى مدرسة متواضعة ملحقة بالمعبد .. أو فى مكان تابع لمعلمه .. وهذه المرحلة تعنى أساساً بتعليم القراءة والكتابة .

٢ - مرحلة تعليمية متقدمة ( المدارس النظامية العامة ) .

٣ - مرحلة تطبيقية ( تدل عليها كراسات تلاميذ عصر الرعامسة ) - حيث كان التلاميذ يحضرونها فى مكاتب العمل فى الإدارات الحكومية المختلفة .

٤ - منهاج تربوى تثقيفى - وهى مرحلة شبة حرة .

٥ - ثقافة عالية تالية للمرحلة السابقة تعهدتها دور الحياة فى العصور المختلفة .

٦ - ثقافات متخصصة ومذاهب عرفت بها بعض المدن الكبرى .. والمعابد ومدارس الكهنة وتعتمد على المكتبات ونشاط العلماء .

ومن الطبيعى أن يكون لكل مرحلة مناهجها الخاصة بها بما يتلاءم مع قدرة التلاميذ على الاستيعاب ، وقد حاولت جاهداً - كما نفعل الآن - أن أتعرف على سنوات العمر فى كل مرحلة من هذه المراحل .. فلم أجد ما يوضح ذلك تمامًا .. لكن المصادر الموثوقة ربطت كل مرحلة بمناهجها التى تدرس بها .

فالمرحلة الأولى تدرس فيها قواعد اللغة .. بهدف تعلم القراءة والكتابة .. وكانت هناك وسائل كثيرة لتعلم اللغة تشابه ما يتم اليوم فى هذه السن المبكرة .. مثل ربط الكلمات بالغناء .. أو الصورة أو الصوت .. إلخ .

وكانت هذه المرحلة لأبناء الشعب جميعًا .. أما أبناء القصور .. فقد كان يشرف عليهم مربون أو معلمون أو مؤدِّبون .. وتبدأ من مجرد الحاضنة أو المرضع وتنتهى بالمربى الذى يقوم بالتثقيف والتعليم .. وكان المربى يتولى أميراً صغيرًا واحدًا أو أكثر ويشترط فيه سعة المعرفة والثقافة وحفظ الحكمة والاستشهاد بالأدب والشعر خاصة .

وحينما تبدأ مع الأطفال المرحلة الجماعية العامة ( المدارس النظامية ) فإننا أمام مرحلة تعليمية - مُهِّد لها من قبل - وهى

مرحلة القراءة والاستيعاب .

وأغلب الظن أنها مرحلة طويلة تمتد سنوات .. تهدف إلى ( حشد ) التعاليم والنصائح والمعلومات وعلوم الدين والحياة التى تؤهل التلميذ إلى المراحل التالية .

## الأدب فى المرحلة الجماعية :

يكاد ينقسم الأدب فى مصر القديمة – بصفة عامة – إلى قسمين :

١ – أدب نثرى تعليمى تهذيبى يتضمن الحكم والأمثال والمواعظ وبعض القصص المستمدة من التراث .

٢ – الشعر : وهو بدوره لونان :

( أ ) شعر تعليمى تهذيبى ويتضمن الحكم والأمثال والمواعظ .

(ب) شعر خالص فى صور أناشيد يحفظها التلاميذ ويقومون بغنائها .

وقد كثرت فى مصر القديمة تلك التعاليم التربوية التى كتبت شعرًا أو نثرًا ، والتى يمكن أن نطلق عليها ( الأدب التهذيبى ) وقد تميزت من حيث الشكل والمضمون بخاصيتين هما :

أولا : أن أغلبها موجه من والد إلى ولده ( أو هى كتبت هكذا على لسان والد إلى والده ) ، وهذه الخاصية تعطيها أهمية لدى

الطفل الذى يحترم كل ما يوجهه إليه أبوه .. ذلك الذى رباه .. وأصبح له قدرة على الحياة .

ثانيًا : أنها اعتمدت فى مجموعها على تقديم الحكمة وخبرة الحياة .

وهناك أمر جدير بالملاحظة على تلك النصوص .. فهى نصوص أودعها الكاتبون والحكماء خبرتهم الخاصة .. فأخذوا يعرِّفون أبناءهم من التلاميذ أموراً كثيرة من الحياة والواقع والدين قد تبدو أكبر من سنهم .

## الشعر التعليمى :

سوف نرى من خلال عرضنا لبعض النصوص أن قدرة التلاميذ الصغار على استيعابها قدرة محيرة حقًا .. لكننا حينما نربط ذلك بواقع الحياة فى مصر القديمة .. تزول حيرتنا على الفور .. فالتاريخ يذكر عدداً من الملوك والحكام كانوا يتولون عرش مصر فى سن صغيرة ( تحت العشرين ) وبعضهم كان يتولى مناصب الكهانة والتعليم فى هذه السن كذلك .. وكان الأب فى ذلك الزمان القديم ينظر إلى ولده على أنه - رجل صغير - أو قل إن طفولته طفولة كبيرة جادة .. وكان حرص الأب على تعليم ولده القراءة والكتابة والعلم أكثر من حرصه على الاشتغال بمهنة خاصة .. فالثقافة بكل ألوانها تمثل ما يهدف إليه الأب من تربية ولده ..

وهذه تعاليم خيتى بن دواوف لابنه بيبى يقول فيها :
« ياولدى عليك أن توجه ( قلبك ) إلى الكتب .. فلا شىء يعلو على الكتب ، ليتنى أستطيع أن أجعلك تحب الكتب أكثر من أمك .. والتلميذ حينما يبدأ طريق النجاح فإن الناس تعلى من شأنه » .

ثم يبدأ خيتى يحفز ولده على الثقافة ويوازن بين أن يكون مثقفًا وأن يكون صاحب مهنة عادية .. فيقول :
« رأيت صانع المعادن يعمل عند فوهة موقده وأصابعه متيبسة مجعدة مثل جلد التمساح ورائحته أنتن من رائحة فضلات السمك ..

والبنّاء يعمل فى كل صلب من الأحجار .. وعندما ينتهى منه تكون قد تكسرت ذراعاه وخارت قواه .. فإذا ما جلس عند الغسق يكون فخذاه وظهره قد تحطمت .. والتاجر يسافر إلى الدلتا ليحصل على ثمن بضاعته ويعمل فوق طاقته على حين يقتله البعوض ، أما النسّاج فى مصنعه .. فأمره أسوأ من أمر النساء اللاتى يجلسن فى المنازل » ، وهكذا مع بقية المهن .
ثم يصل الحكيم إلى بيت القصيد – وهو تمجيد مهنة الكتابة فيقول :
« انظر فإنك لا تجد مهنة من غير رئيس إلا مهنة الكاتب ..

فهو رئيس نفسه وما من كاتب ينقصه الزاد الوفير .. وأن الآلهة لترعاه » .

ألا نحس فى هذا النص الشعرى القديم أنه قد يفوق المستوى العقلى لتلميذ فى سن التعليم ، والذى نفترض أنه لا يتعدى السنين العشر .. إلا أنه نص يؤكد أيضا تلك النظرة الجادة للأطفال .. وحرص الآباء على أن يكون أبناؤهم مثلهم .. وأن يتفتحوا ثقافة وعلمًا وخبرة وإيمانًا بالحكمة التى تقول : « التعليم فى الصغر كالنقش على الحجر » .

ومن أبرز التعاليم فى هذه المرحلة كذلك تلك المجموعة التى ترويها البرديات القديمة .

١ - تعاليم بتاح حوتب لإبنه الصغير :

وتعتبر من أقدم التعاليم فى الأدب الفرعونى ( ٢٦٧٠ ق . م تقريبا ) وتتضمن مجموعة كبيرة من الحكم والأمثال والنصائح .. وهى تعاليم كتبت بالشعر - أو على أقل تقدير - كتبت بأسلوب أقرب للشعر .. تتوالى فيها الصور أمام أعيننا .. وتميط اللثام عن أهداف سامية وصور حية رائعة للحياة المنزلية والاجتماعية .. فنقرأ فيها أدب الحديث .. والغنى والفقر .. والتواضع والجد فى العمل - وحتى الزوجة فى معاملتها برفق - والصراحة والعطف والكرامة

والبعد عن الأذى .. والصمت والقناعة .. والطاعة وحب الناس .. إلخ ..

ومن هذه التعاليم تلك النصوص :

– إذا وجدت رجلا يتكلم .. وكان أكبر منك وأشد حكمة .. فاصغ إليه .. واحنِ ظهرك أمامه ( كناية عن الطاعة والاحترام ) .

– إذا كنت فى صحبة جماعة من الناس .. وكنت عليهم رئيسًا ولشئونهم متوليا .. فعاملهم معاملة حسنة حتى لا تلام .. وليكن مسلكك معهم لا يشوبه نقص ..

– لا تنشر الرعب بين الناس فهذا أمر يعاقب عليه الرب ..

– عندما تجلس إلى المائدة فلا تنظر إلى ما وضع أمام غيرك . بل انظر إلى ما وضع أمامك أنت .. !

– كن صريحًا ولا تخف من أعمالك شيئًا ..

– كن بعيدًا عن الشر والعمل السيئ لكى تكون أعمالك مستطابة حسنة .. وتجنب الشراهة فهى رذيلة مهلكة ..

– كن سمح الوجه وضاء الجبين مشرق الطلعة .. مادمت حيًا .

– ما أجمل طاعة الابن ! إنه عبقرى فى سمعه .. عبقرى فى كلامه .. ذلك الذى يطيع كل ما هو نبيل .. إنه أحد أبناء ( حورس ) .

– حقًا .. إن الابن النجيب هبة من الإله .. إنه يعمل أكثر مما يؤمر به . ويفعل الخير ويضع قلبه فى كل أعماله ..

لقد جاء فى مقدمة هذه التعاليم أن الحكيم (بتاح حوتب ) دخل على ملك مصر العليا والسفلى ( إسكيسى ) .. ثم قال له :

« مرنى يامولاى أن أجعل من ابنى خليفة لى .. يحتل مكانى .. فأعلمه عظات من يسمعون .. وآراء من سبقوا .. !» .

فأجاب الملك :

« علمه العظة أولا .. حتى يكون قدوة لأولاد العظماء .. ويتحلى بالطاعة .. ويدرك كل رأى صائب ممن يتحدث إليه .. فليس هناك ولد أوتى الفهم من تلقاء نفسه » .

وتبين لنا هذه المقدمة كيف كان اهتمام الحاكم كذلك بتربية الجيل الجديد .. وحرصه على أن يكون أبناء الشعب أمثلة للعظمة والطاعة والسلوك الحسن .

## ٢ – أقوال الحكيم إيبوور :

ينظر إلى هذه الأقوال على أنها تقرير مفصل يشخِّص بصدق حالة البلاد السياسية والاجتماعية فى عصر الملك – بيبى الثانى – (الأسرة السادسة ٢٥٠٠ ق . م تقريباً ) – وقد طال عمر ذلك الملك إلى ما يقرب من أربعة وتسعين عامًا ! . وتسبب ضعفه الذى يرجع إلى شيخوخته وكبر سنه إلى نهاية سيئة لعصره .

وهذه الأقوال تتألف من مقدمة نثرية تصف ما حل بالبلاد من فساد ، ثم ست قصائد شعرية فيها جوهر الموضوع نفسه .

أما المقدمة النثرية فقد جاء فيها :

« إن حراس الأبواب يقولون : دعنا نذهب لننهب .. والغسال يرفض أن يحمل حمله .. وصيادى الطيور استعدوا للقتال .. وصار المرء ينظر إلى ابنه كما ينظر العدو .. وغدا الأجانب يقحمون أنفسهم فى كل مكان .. » .

ثم يسوق الحكيم القصائد الست متتالية .. نقتطف منها ما يلى :

« حقاً .. لقد شحب الوجه .. وقد تنبأ بذلك الأجداد ..

– حقاً.. إن من ينهبون قد انتشروا فى كل مكان ..

– حقاً .. إن النيل يأتى بالفيضان .. ولكن ما من أحد يحرث لأن كل إنسان خائف على نفسه ..

– حقاً إن البلاد قد أصابها الدمار ..

– حقاً إن الدلتا تبكى .. وأصبحت أموال الدولة مشاعاً للجميع .. » .

وفى القصيدة الأخيرة ينبه الحكيم بضرورة اليقظة فيقول :

« – تذكر ياولدى – كيف تعبد الآلهة فى الماضى ..

– تذكر .. كيف ينضج الطيب والبخور .. وكيف تراعى القواعد .. وتنظم أيام الشهور .

على أنه من الخير أن تسير السفن متوجهة إلى الجنوب .. وأن تبنى أيدى الرجال الأهرام .. وتشق الأنهار .. ويبدو الفرح فى أفواه الناس ! » .

والملاحظ على هذه الأقوال التى كان يتلقاها التلاميذ فى المرحلة التعليمية - أنها كانت تمس قضايا المجتمع ومشاكله .. وتجعل من يستمع إليها - صغيرًا أو كبيرًا - يشعر بما آلت إليه البلاد فينطلق ليفعل شيئاً من أجلها .. وفى الحقيقة ربما كانت تلك القصائد التى اقتطفنا منها سطورًا قليلة - تفوق عقلية الأطفال فى سِنهم المبكرة - لكننا كما سبق أن أشرنا - تؤكد إمكان تقبل الأطفال لها من الآباء أو المعلمين - كما هى الحال فى تعاليم ( خيتى بن داووف) والتى كانت شائعة فى الدولة الحديثة ( ٣٠٠ ق . م ) .

إن من الصعب - والحال كذلك - أن نفصل فصلاً دقيقًا بين ما كان يقدم للصغار وما كان يقدم للكبار .. خاصة أن المدارس الجماعية تلك .. كانت المجال الوحيد لتدريس الأدب فى عصر الفراعنة مما يجعلنا - بنظرة عادلة - نفخر بأسلوب التربية الشاق الجاد الذى كان يطبق فى ذلك الزمن القديم والذى أدى بالضرورة إلى قيام - واستمرار - وإعجاز - تلك الحضارة الرائعة - حضارة الفراعنة ..

### ٣ - نصائح آنى :

وهذا الكتاب الذى يعود إلى عصر الأسرة الثانية والعشرين ، من عيون الأدب والحكمة وقد عثر عليه فوق لوح تلميذ صغير .. وتقول مقدمة الكتاب :

( هذه فاتحة تعاليم النصح التى ألفها الكاتب آنى الذى ينتسب إلى بيت نفر - رع - نزى ) .

وفى هذه التعاليم يقول آنى لابنه فى أسلوب بسيط شائق :

« يابنى .. أحدثك بما هو حسن لكى يعيه قلبك ..

- لا تكثر من الكلام .. فالصمت خير لك .. لا تكن ثرثارًا بلا فائدة .. وكن قبل كل شىء حريصًا فى كلامك ..

- إن هلاك المرء فى لسانه ..

- اعرف قيمة ربك .. واحترم اسمه وتعاليمه .. وقدم له قربانك ..

- قدِّم الماء لأبيك وأمك .. اللذين انتقلا إلى قبرهما فى الصحراء .. وإياك أن تغفل هذا الواجب .. لكى يعمل لك ابنك المِثْل ..

- ادرس الأدب .. وضعه فى قلبك .. فيطيب كل ما تقول ..

- كن مجتهداً .. لأن الرجل الذى يظل عاطلاً خاملاً لا يكون شيئًا . » .

ونظرة أولى إلى هذه النصائح والتعاليم يتبين لنا بعض الأمور الهامة :

( ا ) لقد وجد كثير من تلك النصائح فى ألواح تلاميذ صغار .. مما يدل - بالقطع - على أنها كانت بين مناهج التدريس العامة .

(ب) أنها كتبت فى وضوح وسلاسة .. وشاعرية كذلك ( وليتنا

نعرف اللغة الأصلية إذن لأحسسنا بفنية هذه الكتابات ) .

(جـ) أنها تضمنت نصائح نجد صداها فى العقائد السماوية وغير السماوية .. وفى القوانين والعرف والعادات التى التزمتها الشعوب فيما بعد .. مما يدل على قدرة الكاتبين - فى ذلك الزمان - وصدقهم ومهارتهم فى الإقناع والتنبؤ واكتشاف المجهول فى النفس الإنسانية .

( د ) أنها تدعو إلى الخير والسلوك السوى والصمت عن الكلام الذى لا يجدى ، وأن اللسان هو موطن الخطر والهلاك .. ( وكل هذه الأقوال لها صداها المعاصر فى الأمثال والعظات الدينية والاجتماعية مثل : إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب - وأيضا فى الأمثال الشعبية - لسانك حصانك - وهكذا ) .

(هـ) أنها تدعو إلى الإخلاص فى عبادة الإله واحترام شريعته وضرورة التقرب إليه ..

( و ) أنها تدعو إلى البر بالوالدين والإحسان إليهما ، تمامًا كما يدعو القرآن الكريم ( وبالوالدين إحسانا ) .

( ز ) أنها تدعو إلى قراءة الأدب بألوانه المختلفة .. وعبارة ( ضعه فى قلبك ) عبارة متوهجة تكمن فيها كل الفائدة .. فالقلب موطن الشعور والعاطفة .. وكلما تغذى الصغير بما ينمى شعوره وعاطفته شب على القيم والحب والكمال .

ولهذا وجدنا بعدها عبارة ( يطيب كل ما تقول ) .. أى أنه لن ينطق إلا بكل شيء طيب حسن .

(حـ) أنها تدعو إلى العمل والاجتهاد .. لا إلى العجز والكسل .. فمن كان عاطلاً فهو نكرة فى المجتمع .. وليس له قيمة فى الوجود .

فإذا ما توغلنا أكثر إلى جوهر هذه النصائح وبنائها الفنى .. نجدها وقد اتخذت صفتين أساسيتين فى عرض الأفكار :

الأولى - الإقناع :

فمن المألوف أن الشعر - خاصة أسلوب الحكم والتهذيب - حينما يوجه إلى الناشئة فإنه ينبغى أن يلتزم مبدأ الإقناع .. وقد أخذت التعاليم المصرية سبيلها إلى الإقناع عن طرق شتى منها : التعقيب المنطقى - والاستشهاد بالمثل والحكمة - واستخلاص العبرة من أحداث ماثلة .. أو وقعت فى الماضى - ومحاولة ربط النتيجة بالسبب - والاستعانة بالوازع الدينى .

الثانية - التوسع والاعتدال :

وتمثل هذه الخاصية فى التوجيه السليم ومراعاة التوسط فى المناسبات المختلفة وفى معاملة الناشئة مع غيرهم ممن فى مستواهم .. أو مع من يكبرهم فى السن .. وبهذا يتجنب الطفل طرفى الإفراط

والتفريط .. ويتخذ طريق الحكمة والتعقل منذ الصغر .

وهذا التوازن الذى تدعو إليه هذه التعاليم تجعلنا نتعجب حقًا .. إذ أن الأطفال كانوا يلتزمون هذا المنهج .. وكثيرًا ما كانوا يقومون بأعمال ومسئوليات فى الواقع أكبر من سنهم .. مما يدل على أن الطفل يمكن أن يعبأ بأفكار ومضامين .. تعيش معه .. وتجعله - ليس الطفل المدلل - ولكن - الطفل الكبير - أو الرجل الصغير -!

## ٤ - تعاليم أمنموبى :

يرجع تاريخ كتابة هذه التعاليم إلى العصر الممتد بين الأسرتين الحادية والعشرين - والثانية والعشرين - وهى تشبه إلى حد كبير تعاليم ( آنى ) من حيث الموضوع واللغة والذيوع والانتشار - حتى أنها كانت ضمن مناهج اللغة ( المطالعة والحفظ ) فى مدارس الدولة الحديثة .

أما مؤلف التعاليم فهو ( الحكيم ) أمنموبى إلى أصغر أبنائه ( حور ماخر ) .

وأهمية هذه التعاليم تعود إلى أنها تركت صداها فيما بعد فى حكم سليمان عليه السلام .. أو ( سفر الأمثال ) حتى أن العالم الألمانى ( جرسمان ) أرجع ذلك إلى نظرية مؤداها أن المدنية والأدب القديم كانا إرثًا مشاعًا بين الدول والشعوب المختلفة التى تجمعها منطقة واحدة .

وتتضمن هذه التعاليم ثلاثين فصلاً .. كُتب بعضها بالنثر .. وبعضها بالشعر .. ومن الفصول التى يتوهج فيه الشعر نقتطف هذه الفقرات :

لا تفكر فى أمور خارجية .. فكل إنسان مقدر له ساعته ..

- لا تجهد نفسك فى طلب المزيد عندما تكون قد حصلت ( بالفعل ) على حاجتك ..
- لا تئن من الفقر ..
- اغرس طيبتك فى أعماق الناس ..
- احفظ لسانك سليما من الألفاظ الشائنة ..
- لا تقرئ أحدًا السلام رياءً .. وأنت تحقد عليه ..
- لا تطمع فى متاع إنسان آخر .. فإن متاع الغير لا خير فيه لك ..
- لا تشارك رجلًا أحمق .. ولا تخالط رجلًا خائنًا ..

- خير لك أن تأكل الخبز وقلبك سعيد .. من الثراء الذى يصحبه النكد والشقاء ..
- لا تطفف فى الوزن .. ولا تنقص فى الكيل .. فإن الإله تحوت يراقب الميزان .
- لا تخش الغد .. مادمت تعتمد على الله ! .

ويتضح من هذه التعاليم أنها ترسم دستورًا عمليا للحياة .. وأنها

تفيض قوة وبلاغة وحيوية وشاعرية .. بل هى تكاد تكون تعاليم شاملة واسعة النظرة عميقة التأثير والمعنى .

٥ - شكاوى خوان أتوب :

أما خوان أتوب هذا فهو الفلاح الفصيح البسيط الذى خرج من قريته بعد أن حمَّل حميره بما يمكن أن يباع فى سوق ( أهناسيا ) - غير أن أحد موظفى الدولة ( تحوتى نخت ) وكان من أتباع أحد الكبار فى القصر الملكى - اعترض سبيله واستولى على حميره بما عليها من سلع ..

ولم يقف الفلاح إزاء هذا العمل صامتًا .. ولم يرض بهذا الظلم .. لكنه ذهب إلى العاصمة وقدم شكواه إلى سيده الكبير فى القصر الملكى .. طالبًا إنصافه من تابعه دون جدوى .. ويسمع الملك بأمر هذا الفلاح .. فأوصى بالعناية بأمره وأمر أسرته ، وجعله يبوح بشكايته التى دارت حول معانى العدالة والحق والإنصاف .

وقد حفظ الأدب المصرى القديم قصة هذا الفلاح بما فيها من أشعار سهلة تلقائية صادقة تدل على أن الشعر ينطلق حتى على ألسنة البسطاء .

ومن هذه الشكايات نقتطف هذه الفقرات :

- ياربان السفينة .

لا تدع سفينتك تغوص فى الرمال

أيها المعين لا تدع أحدًا يموت .
يامن تمنع الخطأ .. لا تدع أحدًا يهلك
أيتها الملاجئ . لا تساعدى التمساح على السرقة .
- أنت قوى نشيط الذراع .. جرىء القلب
ولكن الرحمة تجاوزتك
كن الملجأ واجعل من نفسك الملاذ
وجه لسانك للحق .. ولا تتبع الضلال
ولا تقل زوراً .. وراقب الحُكام
لا تسلب وضيعًا أملاكه .. ولا ضعيفا قوته .
- إن ألسنة الرجال موازينهم
فإذا اختلت هذه الموازين فإنك تختل كذلك
لا تحجب وجهك عما تعرف
ولا تغفل عمن ترى
ولا ترد من سألك !

ولا شك أن مثل هذه الشكايات يمكن أن تضم إلى الأدب التعليمى باعتبارها تتناول العدالة والدعوة إلى السلوك القويم .. والخلق الحسن .

ونكتفى الآن بما سقناه من التعاليم والنصائح التى كتبها الحكماء - الشعراء - على أنها من الأدب التهذيبى .. ولاشك أننا

أمام هذا الكم الهائل - ما ذكرناه وما لم نذكره - لا يمكن أن ننكر هذا الجانب الهام - وهو الأدب التهذيبى - الذى يتناوله الحكماء بالشعر .. وعلينا أن ننظر إليه فى تمعّن فى إطار عصره وظروف الحضارة التى وجد فيها ، ونضيفه باطمئنان إلى فن الشعر السائد فى تلك العصور القديمة .

الشعر الخالص :

إننا هنا أمام الشق الآخر من الأشعار ، بعد أن تناولنا آنفًا الشقَ الأول - الشعر التعليمى أو التهذيبى - وما نقصده هو الشعر الخالص .. أو ما يمكن أن نطلق عليه الشعر الدنيوى أو الاجتماعى أو البعيد عن المباشرة والتقريرية .

وقد زادت أهمية الشعر الذى يقدم للتلاميذ رغبة فى التعرف على جوانب الحياة بنظرة فنية : فحياة الفراعنة وانتصاراتهم وأعمالهم الفنية وما اتصل بها من رموزوتيجان ومدن وقصور كل هذا أفسح مجالا خصبًا للشعر .

لقد وُجدت أشعار تمجد الآلهة .. وأشعار تمدح الحكام .. أو بعض الطوائف التى تخدم الآلهة .. وأشعار تسجل الأحداث وتشيد بالانتصارات .. وأشعار تمجد الماضى والحاضر .. وأشعار فى الحب العفيف .. إلى آخر هذه الأغراض التى تعرف فى فن الشعر ..

ومن أشهر القصائد التى وجدت على مدى التاريخ الفرعونى

( نشيد النيل ) وفيه يقول مؤلفه المجهول :

حمدًا للنيل ..

ينزل من السماء

ويسقى البرارى البعيدة عن الماء ..

وينتج الشعير .. وينبت الحنطة

وهو سيد الأسماك ..

وهو الذى يجدد للمعابد أعيادها

فإذا تكاسل انسدت الأنوف وافتقر الناس وهلكت الملايين ..

وإذا بخل .. ذعرت الأرض وبكى الكبير والصغير ..

وإذا ارتفع مرة أخرى وأشرق ..

تصبح الأرض فى حبور .. والناس فى سرور

وسرعان ما تبتسم الوجوه .. وتستريح القلوب ..

ويكاد هذا النشيد تتردد معانيه نفسها فى كل الكتابات الشعرية التى كتبت عن النيل فى العصر الحديث .. فإذا ما قرأنا نشيد النيل للشاعر أحمد شوقى - وقد كتبه أيضا للناشئة - لا نكاد نجد اختلافًا .. يقول شوقى :

النيل العذب هو الكوثر     والجنة شاطئه الأخضر

ريان الصفحة والمنظر     ما أبهى الخلد وما أنضر

( إلى آخر النشيد )

كما وجدت إلى جانب القصائد والأناشيد التى تتناول النيل .. قصائد وأغانٍ أخرى تتناول الانتصارات المتتالية .. بما يمكن أن نطلق عليه بتعبير العصر ( الأغانى والأناشيد الوطنية ) .. والغريب فى هذه القصائد أنها أيضًا لا تختلف كثيرًا من حيث الإحساس والتجربة الوطنية فى أى عصر من العصور ..

ومن هذه الألوان تلك الأغنية التى تشيد بالنصر والتى كتبت فى عهد الملك ( منفتاح ) .. وفيها :

هذا الذى يفتح أبواب الأسوار ( أى الحاكم ) .
والذى يدع معابده تستقبل قرابينها
وهو الذى يقوِّى قلوب الألوف من البشر
ويقوِّض بها أركان العدو
إنه يصد الأعداء بشجاعة وهم يطئون أرض مصر

وحينما يعود الجيش منتصرًا من أرض المعركة نجد أنشودة أخرى تشيد بهذه العودة - وهى تعود إلى عهد الدولة القديمة - وفيها يقول الشاعر :

هذا الجيش عاد إلى وطنه موفقًا
فقد مزَّق بلاد سكان الرمال
هذا الجيش عاد إلى وطنه موفقًا
فقد دمَّر حصون الأعداء
هذا الجيش عاد إلى وطنه موفقًا

فقد أحضر جنودًا كثيرة أسرى ..

ومن يقرأ هذه القصائد الوطنية يلاحظ أن ظاهرة التكرار هنا قُصد بها تمجيد الجيش ، كما قصد بها كذلك تيسير حفظ الأنشودة وترديدها .. لتكون نشيدًا عامًّا لا صعوبة فيه ، والمعروف – فى غياب وسائل الإعلام الحديثة – أن المدرسة هى العرين الأول لترديد مثل هذه القصائد باعتبارها جزءًا من مناهج التربية الوطنية ..

ولم يكن النيل وحده أو الجيش أو النصر موضوعًا للشعر الخالص الذى يردده التلاميذ ويغنونه .. وإنما وجدت قصائد أخرى وأناشيد .. من أشهرها تلك القصائد التى تغنى بها التلاميذ فى فضل المربى ( المعلم ) .

ومن هذه القصائد .. ما كتبه تلميذ إلى معلمه يقول :

لسوف تهبط إلى سفينتك
عامرة من المقدمة إلى المؤخرة
وتبلغ قصرك البديع
الذى أقمته بنفسك لنفسك ..

وتستمر القصيدة هكذا تمجد المربى (المعلم ) وتشيد بفضله فى التعليم والتثقيف .. ويلفت النظر هنا أن كاتب القصيدة كان أحد التلاميذ .. مما يوضح لنا أن الشعر كذلك – مثله مثل مواد الدراسة الأخرى – كان يُدرس للتلاميذ .. وكان التلاميذ يكتبونه – أو هم

يحاولونه – وكان المعلم سعيدًا بذلك .. سعادة التلميذ الذى يكتب قصيدته فى مدح معلمه .

وهذا أمر يقف بنا أمام حقيقة مهمة .. هى أن الإبداع – والفن عامة بالضرورة – ليس مقصورًا على الكبار – أو الحكماء – فقد كان يمارسه التلاميذ صغار السن كذلك ماداموا يمتلكون الموهبة والقواعد الفنية للشعر ..

وسوف نرى فيما بعد حينما نتحدث عن التراث العربى مواقف مشابهة لموقف هذا التلميذ الصغير مما يجعلنا ندرك – عن يقين – قدرة التلاميذ على استيعاب أى شعر يقال .. حتى لو ظُن أنه يفوق إدراكهم .

كما أن الشعر فى هذا الزمان كان لونين : شعرًا بقافية .. وشعرًا بلا قافية .. ونسوق هنا – للإيضاح – تلك القصيدة المكتوبة بألفاظها المصرية .. والتى تظهر فيها القافية فى نهاية السطور .. تقول القصيدة ( وقد كتبها أيضًا تلميذ إلى معلمه ) :

بايك إهايت محم بحسو
إوتايك مروردو
إوك منتو ..
خفيتوك خرحرو
بامدت إيمك بنسو
إوك عقيتم باح نترو

بريتم ماع خرو ..

ومن الأشعار كذلك ما تتحدث عن الآلهة فتقول :

أيتها الآلهة فى السماء

أيتها الآلهة فوق الأرض .

وأهل الجنوب والشمال

والمغارب والمشارق

أقبلو .. وتطّلعوا إلى ( تحوتى )

وكيف يشرق بتاجه الجميل .

ولابد أن أناشيد ( أخناتون ) المعروفة باسم ( أنشودة آتون ) كان لها مكانها كذلك فى مدارس عصره .. بما تتميز به من البساطة فى التعبير .. والرقة فى الأسلوب ..

وتجدر الإشارة هنا إلى أن ( أنشودة آتون ) .. تلك ..قد وجد صداها - تكاد تكون فقرات مطابقة تمامًا - فى مزامير داود - خاصة الرموز رقم ١٠٤ - مما يدل على سعة رؤية أخناتون وقدرته على إضفاء صفات عالمية على معبوده ( آتون ) بحيث يرى فيها كل إنسان مصرى أو أجنبى : مثله العليا التى يتطلع إليها فى معبوده .. ومن هذه الأنشودة نقتطف هذه الفقرات التى كان لى شرف ترجمتها شعرًا :

يا من تسطع فى الآفاق جميلا

يا آتون ..

يا رب الأرباب
يا أول ما عاش .. وما كان
يا من تُشرق بالنور علينا
تغمر كلَّ الأرض بهاء
يا من تسبح فى الآفاق بعيدًا
لكن ضياءك يا محبوبى يمنحنا طول العمر ..
يا من تتعالى تغمر كل الأرض
تحنو بالحب على مخلوقاتك
يارب الأرباب ..
فإذا غبت مساءً عنا
أظلمت الدنيا .. وتلاشى النور .. وخاف القلب
يا آتون الرب ..
يا من سبَّحَتِ الأشجارُ بحمدك
يا من يتباهى الطيرُ بحبك
يا من تجرى الفُلْكُ بأمرك
يا من تبدع كلَّ جنين فى الأرحام .
يا من ترعاه طويلًا حتى يُولد حيًّا ..

..................................................

ما أكثر ما تخلق يا محبوبى

يا أبهى من يشرق يامحبوبى

يا أقرب من يحنو ..

يا أعظم من يبدع .. يا محبوبى

يا آتون الرب .

( إلى آخر الأنشودة )[1]

كما كانت أسطورة إيزيس وأوزوريس ( المعروفة ) تُدرَّس أيضًا للأبناء فى صيغة شعرية مسرحية .. وخاصة فى تلك المواقف التى كانت بين إيزيس والآلهة .. ومنها أن قلب الإلهة قد رقَّ للأم الثكلى ( إيزيس ) وناداها قائلاً :

تعالىْ إلى .. تعالىْ إلى

إنى إلهة ذاع صيتها فى المدينة

وقد اكتسبت من أبى ( الإله ) قدرةً سحرية

فمى له قدرة سحرية لا مثيل لها .

وهنا تضع إيزيس ابنها حورس بين يدى الإلهة التى تباركه وتمنحه القدرة على الحياة ..

ولا شك أن الأساطير المصرية القديمة قد لعبت دورًا خطيرًا فى الأدب المصرى ، وكانت تمثل جانبًا من دراسة الأدب القديم ( التراث ) فى دور العلم .. وكان الأطفال يستمتعون بسردها

( ١ ) انظر مسرحية ( أخناتون ) للمؤلف - دار المعارف ١٩٨٢ .

وبالأشعار التى تتخللها للآلهة ، أوفى مواقف أخرى تدل على لعواطف أو الانتصارات وغير ذلك .

ووُجدت نصوص كثيرة تتحدث عن انتصارات القادة فى المعارك .. ومنها ما يمدح - رمسيس الثانى - ويتحدث عن نصر قادش على وجه الخصوص .

وقد عثر أيضًا على دعاء مكتوب بالشعر قاله ( رمسيس ) حينما حوصر فى معركة قادش .. وقد وجه هذا الدعاء إلى الإله آمون .. يقول فيه :

ما هذا يا أبتِ آمون
أحقا يتخلى الأب عن ولده
ألم أذهب إلى ميدان المعركة بأمرك

..................................................

ما من شىء طيب إلا أديته فى محرابك
بحق هذا كله أدعوك
فأنت أقرب منى .. من مائة ألف من الرجال .

ومن النصوص الشعرية التى تتعلق بالسلوك العام المرتبط بمراقبة الآلهة .. يوجد هذا النص الذى ينسب إلى الحكيم ( عنخ شا شنقى ) .. ويقول فيه :

إذا غضب رع على أرض .. نسى حاكمُها العرف
إذا غضب رع على أرض .. عُطِّل فيها القانون

وأبعد عنها الطهر
وعُطل فيها العدل
وسقطت فيها الأقدار
وضاعت فيها الثقة
وارتفع الجاهلون فيها وسادوا
وانخفض الحكماءُ وهانوا
وعز الأغبياء .. وذل العلماء .

وكل هذا من غضب الآلهة .. ومن إرادة الإله كذلك .. وهى نفس العقيدة بقدرة الإله على التصرف فى خلقه والتى نجدها فى الكتب السماوية فيما بعد .. ( وإذا أردنا أن نُهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ) « الإسراء - ١٦ » .

وكما هى الحال فى دراسة الشعر فى المدارس .. كان الغزل يمثل جانبًا هامًا من هذه الأشعار وقد عثر على كثير من القصائد الغزلية على ألواح الفَخار وأوراق البَردى تحكى مشاعر الفتيان للفتيات على نحو لا يبدو غريبًا عما يحكيه أحفادهم بعد آلاف السنين ..

ويتأكد بهذا أن الحضارة العربية - فى الجزيرة العربية - كانت على اتصال دائم بالحضارة المصرية القديمة وآدابها - خاصة الشعر - حتى اشتهر الشعر العربى : بالغزليات .. ومنها ما تشابه مع الغزليات المصرية القديمة ..

لقد تراوحت النصوص القديمة بين الحوار .. والحب .. وإشراك

الطبيعة فى العاطفة المتبادلة والأغانى المرحة وغيرها مما يتعلق بعواطف المحبين .

فهذه قصيدة كتبتها عاشقة لحبيبها عن شجرة التوت .. تقول فيها :

الشجيرة التى زرعتها بيدك
تحرك شفتيها لتناجيك
ما أحلى أغصانها والنسيمُ يداعبها
فيُصدر عنها هذا الهمس .
إنه حلوٌ كالعسل ..
والغصون .. تشدها الفاكهة
إلى أمها الأرض ..

ويعتبر الأدب المصرى القديم أسبق إلى الحكاية على أفواه الحيوان .. إذ يرجع تاريخ كتابتها إلى القرن الثانى عشر قبل الميلاد .. ومن بين هذه الحكايات التى وجدت على أوراق البردى حكاية ( السبع والفار ) .

**خلاصة :**

كانت رحلتنا السريعة تتركز حول الأدب - و خاصة الشعر - الذى كان ضمن المواد التى تدرس فى المرحلة التعليمية الأولية فى المدارس النظامية .. وتلك المرحلة هى التى تعنينا فى دراستنا ونحن

نطوف مع الطفل الذى يتلقى فى هذه السنوات الأولى .. ما يساعده على النمو العقلى .. والنضج الوجدانى .

ولهذا لم نتعرض للمراحل التالية باعتبارها تخرج عن نطاق الدراسة إلى التطبيق .. وباعتبار الدارسين فيها قد تجاوزوا عمر الطفولة المفترض .

وخلاصة ما نود أن نخرج به .. أن التربية المصرية القديمة قد سلكت مسلكًا وسطًا يستهدف غايات مخلصة فى التعليم والتثقيف .. حيث تضمنت قواعد السلوك والأخلاق وسبل العبادة الحقة والحياة السليمة .. وكان أوضح أهداف التربية فى ذلك العصر القديم - حتى أحدث الدول فيه - أن تكفل للناشئ عقلاً ناضجًا .. وفكرًا واعيًا متفتحًا .. لمواجهة الحياة والمشاكل اليومية .

وكان الشعر يمثل جانبًا هامًّا من جوانب الأدب طوال عصور الفراعنة المختلفة .. وكان ذا شقين : شعر يدخل ضمن الأدب التهذيبى أو الدينى .. وهو صياغة سلسة للحكم والأمثال والنصائح لكبار الحكماء - وأحيانًا كتبه الآباء - وشعر خالص يأخذ بيد الطفل إلى عالمه الواقعى والوجدانى معًا .. فيتناول كل شئ من حوله فى أغراض شتى دينية واجتماعية ووصفية وغزلية ووطنية .. وغيرها .

ووجدت محاولات قادرة لكتابة الشعر على يد الأطفال أنفسهم .. فكانوا يكتبونه بخط واضح كبير .. ويُفسحون له فى

ألواحهم وبردياتهم الصغيرة .. وكانوا ينظرون إلى معلمهم نظرة احترام وتقدير وينشئون أشعارًا فيهم .. والملفت للنظر أنها كانت أشعارًا نلمس فيها سحر البيان والحكمة كذلك ، وكان شعار الأطفال الذين يكتبون الشعر هو « لا تَقُلْ أجدْتَ الكتابة مادمت لست كذلك .. ولا تقل إنى متعلم ، واستمر فى تحصيل المعرفة » .

ولا شك أن مبدءًا كهذا يضع الطفل أمام مسئولية كبيرة فى هذه السن المبكرة .. ومجتمع هذا شأنه مع أطفاله .. يعطينا إجابات شافية عن أسباب القوة والعبقرية التى سادت عصور الفراعنة .. فما من شك أن هؤلاء الأطفال هم الذين - بعد سنوات قليلة - أصبحوا حكامًا وحكماء وقوادًا وكتبةً وكهانًا .. وأضافوا الكثير إلى الحضارة لتكون من أكبر حضارات العالم القديمة فنًّا وأدبًا وقدرة على الإبداع ..

# وقفات مجملة أخرى مع الشعر
# فى بعض الحضارات القديمة

رأينا استكمالا لملامح الصورة القديمة - أن نتوقف قليلاً عند أبرز القسمات التى اشتهرت بها بعض الحضارات فى مجال الشعر الموجه للأطفال .. ولا ندعى أنها سوف تكون وقفات جامعة مانعة .. لكننا قصدنا مجرد التعرف .. تاركين لمن يريد أن يستزيد أن يعود إلى عشرات من المراجع الموثوقة فى هذا المجال .. مكتفين بما فصلناه - آنفًا - عن حضارتنا المصرية القديمة .. باعتبارها - بلا شك - أبرز الحضارات وأعرقها إنتاجًا أدبيًّا - خاصة فى مجال الشعر - بالإضافة إلى تأثيرها المباشر فى الحضارات المجاورة ، والذى يمتد أثره إلى عصرنا هذا .

١ - وادى الرافدين :

لقد نشأت وازدهرت فى كثير من بلاد الشرق حضارات ومدنيات .. ولم تكن تلك الحضارات بمعزل عن بعضها البعض .. بل اتصلت وأخذت وأعطت .. وكان من أهم تلك الحضارات مصر ومن

بينها وادى الرافدين .. إذ نشأت فى كل منها حضارة أصبحت منارًا ومعينًا لما جاورها من المناطق .

وقد ظهرت الكتابة فى حضارة وادى الرافدين فى وقت قريب من اختراع الكتابة لدى المصريين القدماء .. والمهم هنا ليس فى بحث من سبق الآخر إليها .. لكن المهم هو أن تلك الحضارة التى نشأت على ضفاف الرافدين كان لها أيضًا - بحكم الجوار .. وبحكم الإبداع معًا - ملامحها الثقافية التى انعكست على الأدب والتهذيب والأمثال .. ولا شك أن ألواح ( سومر ) المشهورة تشهد لنا بذلك شهادة لا يدانيها أى شك .

ويذكر تاريخ الحضارة أن عددًا من المدارس قد ظهر فى الألف الثالث ( ق.م ) .. فى جميع بلاد سومر .. بحيث صارت الكتابة تدرس تدريسًا منظمًا .. وعثر على كثير من الألواح المدرسية المشابهة لألواح التلاميذ فى مصر القديمة - يرجع تاريخها إلى ٢٥٠٠ ق.م على وجه التقريب .

على أن التعليم هناك لم يكن عامًّا ولا إلزاميًّا .. فكان معظم الطلاب من الأسر الغنية ، أما الفقراء فكان من الصعب عليهم توفير المال والوقت اللذين يتطلبهما التعليم الطويل الأمد ..

وكان مدير المدرسة السومرية يدعى ( أوميا ) أى الخبير أو الأستاذ - وكان من ألقابه ( أبو المدرسة ) أما التلميذ فقد كان يلقب ( بابن المدرسة ) .

وتؤكد الوثائق التاريخية أن المدرسين السومريين كانوا يستعملون العصا لمن يتأخر فى بداية اليوم الدراسى – كما كانوا يرضخون للتملق ويستجيبون للرشاوى التى كان يقدمها لهم تلاميذهم .

ومن حسن الحظ أنه عثر على لوح به قطعة أدبية رائعة تتحدث فى هذا الموضوع ، وهى بلا شك موضوع إنشائى كتبه أستاذ من أساتذة تلك المدارس فى صورة حوار على هذا الشكل :

الأستاذ : أيها التلميذ .. ماذا كنت تفعل منذ أيامك المبكرة ؟

التلميذ : كنت أذهب إلى المدرسة .

( ثم يحكى لنا ذلك التلميذ ما كان يحدث فى اليوم المدرسى وما لاقاه من عنت وضرب وتأنيب وكيف قال له الأستاذ بعد ضربه .. )

الأستاذ : إن خطَّك ردىء وغير مرض ..

( ولم يسع التلميذ إزاء ذلك إلا أن يوجه أباه لشراء ود المدرس فيدعوه لزيارته وبعد أن دخل البيت أجلسه فى أشرف مكان .. وقام التلميذ بنفسه على خدمته وأخذ يستعيد أمام أبيه كل ما تعلمه من فن كتابة الألواح .. ثم إن الأب قدم الخمر للمدرس وقدم له الطعام وكساه بحلة جديدة .. وأهداه هدية ووضع خاتمًا فى أصبعه ! ) .

وكان منهج الدراسة فى المدرسة السومرية قسمين : قسم علمى قائم على البحث – وقسم أدبى قائم على الإبداع .. وما يهمنا هنا هو القسم الأدبى .. حيث كان يعتمد أساسًا على الدرس

والاستنساخ وتقليد مجموعة كبيرة مختلفة من التآليف الأدبية تبلغ المئات .. كانت غالبتها العظمى شعرية فى تراكيبها .. وهى تتراوح فى مقادير أطوالها من قطعة قوامها أقل من خمسين سطرًا ، إلى قطعة مطولة تكاد تصل إلى ألف سطر ، ويمكن أن نتعرف على هذا الأدب الذى كان يقدم للتلاميذ فى سن الدراسة فى الأبواب الآتية :

١ - الأساطير وقصص الملاحم على هيئة قصائد قصصية تشيد بأعمال آلهة السومريين وبمآثر أبطالهم .

٢ - التراتيل الدينية لتمجيد الآلهة والملوك .

٣ - المراثى فى ندب الدمار الذى حلَّ بالمدن السومرية .

٤ - مجموعات الحكمة والأمثال المروية على ألسنة الحيوانات أو حتى فى صورة مواعظ ورسائل وأقوال وكانت فى صور شعرية رائعة .

والشعر فى أدب وادى الرافدين - سومريًّا كان أم بابليًّا فيما بعد - يماثل أنماط الشعر فى الحضارات القديمة .. كان يخضع لفن خاص من النظم والتأليف .. فهو من أبيات .. قوام كل بيت من مصراعين ( الصدر والعجز ) - وكان موزونًا ولكنه غير مقفى .. فهو بذلك قريب من الشعر العبرانى واليونانى والرومانى الذى كتب فى أزمان مماثلة أو تالية .

كما كان الشعر يتميز بكثرة التكرار والإعادة .. مما قد يبعث على الملل أوالسأم فى بعض المواقف وخاصة فى الملاحم الشعرية -

مثل ملحمة جلجامش - إلا أنها فى قصائد أخرى قد يقصد بها تقريب الشعر إلى الوجدان .

وقد ترجمت ملحمة جلجامش إلى العربية أكثر من مرة .. وهى تحتوى على مواقف بطولية وعاطفية .. كما تتضمن تصورات لخلق الكون مما كان الأولاد يدرسونه فى مدارسهم .

أما التراتيل الدينية لتمجيد الآلهة والملوك فهى كثيرة فى تلك الحضارة منها ما أخذ جانب الإرهاب ومنها ما أخذ جانب الترغيب والمواساة ومنها .

« من سلك سبيل العدوان واغتصبت يده ما ليس له .
من نظر نظرة رضا إلى مواطن الشر..
من بدل الوزن الكبير بالوزن الصغير ..
من أكل ما ليس له ولم يقل ما حدث ..
ومن قال لآكلن ما حُرم .. ولأشربن ما حرم .. ،
فسوف يُعاقب على جرائمه .. »

ومنها أيضًا هذا النص الذى يشبه المناجاة :

« يا إلهى أريد أن أقف بين يديك
أريد أن أعرض عليك أمرى وأندب مرارة سبيلى .
إن الدموع والنواح والجوع ملازمة لى ..
يا إلهى ساعدنى على النهوض كالبقرة البريئة
إلى متى ستظل مهمِلا إياى وتتركنى بلا حماية

إلى متى ستتخلَّى عنى وأبقى بلا هداية .!»

ولم تكن أشعار الوصايا والحكم بأقل من الأغراض الأخرى .. فقد كثرت تلك الأشعار – خاصة فى الأدب البابلى – وهى تحمل كثيرًا من ألوان النصح والأمثال .. ومنها تلك الوصية التى يوصى بها أب ولده الصغير .. ويقول فيها :

– يا ولدى ..

« إن كنت عاملًا .. فلتكن فطنتك معتدلة
وليكن فمك حييًّا .. واحترس فى قولك
ويل لك من البذاءة والبغضاء .
لا تقل ما ليس لك به علم ولا تعط النصيحة كاذبة
إن من يفعلْ سوءًا يصبحْ مهانًا ..
لا تُسِئْ إلى غريمك
فإن المسىء إليك .. بالجميل يكافأ ..
وعامل عدوك بالعدل ..
والذى يجور عليك بالصبر ..
اضرع لإلهك كل يوم
وليكن قلبك مفعمًا بالخشوع . »

ويوضح هذا النص تشابهًا كبيرًا مع كثير من النصوص فى مصر القديمة .. كما يتضح منه كذلك دور الآباء فى تربية الأبناء على كثير من القيم الخلقية والدينية ..

أما المراثى وندب الدمار الذى حل بالبلاد .. فقد كثر الشعر الذى قيل فيها مما يرتبط بالذات أو يسقط على النفس .. كمثل قول المشتكى الباكى الذى يعزو كل إخفاق له إلى القضاء والقدر فيقول :

« لقد ولدت فى يوم نحس »

– وغيره .. الذى يصور الارتباك والاضطراب وقلق الناس :

« كتب علينا الموت فلننفق ..
ومادمنا نعيش عمرًا طويلاً فلنقتصد
يقولون إن الزرع المبكر سيفلح .. فمن أدرانا .
ويقولون إن الزرع المتأخر سيفلح .. فمن أدرانا ..
خير للفقير أن يموت من أن يعيش .. ! »

وعلى الطرف الآخر نجد قصائد غزلية تشيد بالحب والجمال والعاطفة المتدفقة فى صور قصصية بديعة .. والغريب أن كثيرًا من هذه الأغانى كان يتلوها الصغار ليس فقط فى المدارس ولكن أيضًا فى المواسم الدينية والاحتفالات العامة .. ومنها هذا النص :

« أيها العريس .. نم فى بيتنا حتى طلوع الفجر
إننى أعرف كيف أدخل السرور إلى قلبك .
اجعلنى امنحك شيئًا من الملاطفة والتدليل » .

أما الحكمة والمثل لدى حضارة وادى الرافدين ، فقد دعا الأدب

الذى يتناولها إلى الخلق الرفيعة والتهذيب كما هى الحال لدى الأدب التعليمى فى مصر القديمة .. ومن هذه النصوص :

« لا تسئ إلى خصمك ..
أحسن إلى من يسيء إليك ..
عامل عدوك بالعدل ..
التقوى تولّد السعادة ..
وتقديم القرابين يطيل الحياة ..
والصلاة تكفِّر الذنوب .. »

كما وجدت لدى هذه الحضارة فكرة انتشرت أيضًا بين العبريين ، وهى ما يلاقيه الإنسان من ألوان العنت والشقاء والصبر بما يذكرنا بسفر أيوب - لماذا يمتحن الرجل الطيب بالشقاء -

ومن هذه النصوص التى تعالج هذه الفكرة فى شعر وادى الرافدين :

« لقد بلغت غاية العمر ومضيت إلى ما وراءها
وتلفتُّ حولى .. فإذا شرٌّ فوق شر
ضيقى يزداد .. والعدل يفرُّ من أمامى ..
وليس لى إلا الصلاة والتضرع
إلى متى يا إلهى هذا الشقاء .. » .

والملاحظة هنا فى الشعر السومرى والبابلى .. أن التقاليد قد لعبت دورًا كبيرًا فى الأدب ، وحددت طبيعته المحافِظَة بل الجامدة فى

كثير من نصوصه .. ولهذا فإنه كان يُقدَّم للصفوة فقط باعتبار أن التعليم هو المجال الوحيد لانتشاره .

وكان المؤلفون يترددون كثيرًا فى إبداع العمل الأدبى .. فليس كل نص يقبل ليدرس أو ينتشر فى مدارس التعليم . إلا إذا كان مطابقًا للشروط العامة التى تخضع للتقاليد المحافظة .

كما كان يتسم الأدب بالمبالغة فى وضع المقاييس .. وبالتكرار لكثير من الأنماط والأشكال وكان المؤلف يميل إلى إخفاء شخصيته وراء الصور التقليدية .. فجاء الشعر - والأدب عامة - شكليًّا خاليًا من الطابع الشخصى .. محافظًا إلى درجة الجمود !

٢ - الحضارة اليونانية :

لقد تركت اليونان لنا أدبًا رفيعًا امتاز بالجمال والبساطة وصدق التعبير .. أبدع معظمه فى أثينا .. التى بقيت قرنًا ونصف قرن المركز الأول للثقافة العالية والفنون الجميلة .

ولن تنسى الذاكرة أغانى بنداروس .. ومسرحيات إيسخيلوس ومآسى سوفوكليس وروايات أريستوفانيس وأشعار يوريبيدس وتاريخ هيرودوت .. وأساطير إيسوب مما كان غذاءً أدبيًّا لجميع العصور .

ومنذ القرن السابع ق.م كان للإغريق شعراء إيليجيون وغنائيون - أى شعراء - ينظمون فى أبيات شعرية إحساساتهم الشخصية

والأفراح والآلام والحكم والأمثال .

وما يهمنا من هذه الأشعار جميعها ، ما كان يقدم كشعر تعليمى يُقدم إلى التلاميذ ، إذ تعود القصيدة التعليمية إلى شاعر يسمى ( هزيود ) خلّف لنا قصيدتين ، إحداهما عن عائلات الآلهة .. والأخرى عن أعمال الناس .

ومن قصيدة عائلات الآلهة نقتطف هذه السطور التى تقول :

« ظهر إلى الوجود
عندما اختلط الحب بين ذكر وأنثى
فى البدء كان الخواء
ثم جاءت ( الأرض )
ثم وجد الحب أجمل الخالدين
وخلف هذا كانت الظلمة والليل
والهواء والنهار .. » .

وتبلغ هذه القصيدة التعليمية ( ١٠٢٢ سطرًا ) يتحدث فيها عن بداية الخلق وفكرة الآلهة ومظاهرها المختلفة وتطورها .

أما القصيدة الأخرى التى تتحدث عن أعمال الناس اليومية .. فهى قصيدة مليئة بالحزن والشجاعة فى آن واحد .. لأن المؤلف يرى أن العالم ردىء .. والناس ظالمين .. وينتهى دائمًا إلى أننا ننقذ أنفسنا من كل هذا بالهمة والمثابرة والعناد .. وأنه ليس هناك إلا شقاء واحد حقيقى ألا وهو اليأس .

وتعود مثل هذه القصائد التعليمية على مدى التاريخ الإغريقى على أيدى شعراء آخرين مثل كاليماك .. وأبولونيوس وغيرهما .

كما وُجد لون من الشعر يسمى شعر (التقريع ) .. وهو عبارة عن قصائد قصيرة جدًّا مقتضبة موجزة يحسها المتلقى كسياط التقريع .. وكان من أشهر مؤلفى قصائد التقريع ( ميلياجر ) .

إلا أننا يمكننا أن نتابع بدقة نماذج الشعر المختلفة لدى الحضارة اليونانية .. فتلك لا تقع تحت حصر .. ولا مجال هنا لمثل ذلك .. لكن وقفتنا سوف تكون مع عمل لا يزال مصدرا خصبًا من مصادر أدب الأطفال فى العالم المعاصر .. ذلك هو أمثال أو حكايات .. أو خرافات إيسوب ..

لقد شغل العلماء أنفسهم من قديم الزمان بتحقيق مولد إيسوب - تمامًا كما شغلوا بهوميروس وغيره من مؤلفى التراجيديا اليونانية القديمة ..

ويكاد يجمع الباحثون على أنه ولد عام ٦٢٠ ق . م وأنه عاش فترة من حياته عبدًا يعانى أغلال الرق .. لكنه اشترى حريته بالحيلة البارعة والذكاء النادر .. واستطاع بحكمته أن يشق لنفسه طريقًا فى حياة الأحرار .

وقد أقام فى مدينة ساروس وندبه ملكها فى سفارات شتى .. وفى هذه الرحلات كتب قصصه وخرافاته فى تهدئة الخواطر وإخماد الفتن

فى بعض المدن اليونانية .. حتى انتهى به المطاف إلى ( دلفى ) .. لكن حياته انتهت بالقتل .

وتعتبر هذه الخرافات أول لون أدبى يونانى قديم أنطق فيه الشاعر الطير والحيوان بأعمق الحكم وقد ترجمها إلى اللاتينية فايدروس .. الذى قلده كتاب كثيرون فى الغرب ونقلوا عنه ، خاصة الشاعر (لافونتين ) .. أما فى العربية فقد ترجمت أكثر من مرة .. ونُظمت على يد محمد عثمان جلال وأحمد شوقى ، وغيرهما .

وفى عام ١٩٤٣ أصدر الكاتب أ .د. وينتل سيرة ذاتية عن إيسوب .. وقد فهم الكاتب خرافاته على أنها تربوية أو تعليمية ، وأنها ثمرة ملاحظة ونتيجة إحساس .. وخلاصة تجربة طويلة .. حتى أننا نتساءل عن مدى تأثر كتاب مثل ( كليلة ودمنة ) بما سبقه من كتابات على ألسنة الحيوانات ، سواء أكانت فى الأدب المصرى القديم أو فى أدب وادى الرافدين أو فى خرافات إيسوب .

وقد كان إيسوب حكيمًا حينما كتب آراءه على ألسنة الحيوان والطير .. معبرًا عن اضطهاد السلطة .. والسيطرة الجاهلة من القوى المسئولة على الضعفاء والمساكين .. وربما كانت هذه الأسباب نفسها هى التى دفعت الكتاب إلى أن يكتبوا على ألسنة الحيوانات .. ويأتى فى مقدمتهم العصر الحديث جورج أورويل ( ١٩٠٣ - ١٩٥٠ ) حين عبر فى روايته ( مزرعة الحيوانات ) عن خشيته على الحرية الفردية من تسلط السلطة الحاكمة ..

ولا شكٍ أن المدرسة اليونانية القديمة - خاصة فى عصر الإسكندر - كانت تهتم بالأدب التعليمى - وحتى حينما استحال العالم الإغريقى إلى أقاليم رومانية ظل مركزًا للأدب كذلك -

وفى عصر البطالمة زاد الاهتمام بالمكتبة وإدارتها .. وقام العلماء بتصنيف كتبها وتقسيمها حسب الموضوعات .. ووضعوا لها الفهارس .. وكان (زنودوتس ) أول أمين للمكتبة فى ذاك العصر .. اهتم كثيرًا بتبويب الشعر القصصى والغنائى .. وعَهِدَ إلى مساعده بتصنيف الكوميديا .

كما شغف أدباء الإسكندرية بكثير من ألوان الأدب والشعر .. كان من أشهرها ذلك الشعر الذى يتحدث عن الريف ومناظره والتغنى بالحياة ووصف الطبيعة وجمالها .. وكان هذا الباب جديدًا على الشعر .. وسُمى بالشعر الرَّعْوى .. ومن أشهر شعراء هذا اللون ثيوكريتوس - موسخوس - وبيون وغيرهم .. ومن أشهر قصائد ثيوكريتوس قصيدته الطويلة ( دافنس ) وهو المثل الأعلى للرعاة عند اليونانيين يقول فيها :

« وداعًا أيها الينبوع

وداعًا أيتها الأنهار التى تحمل ماءها العذب إلى البحر العظيم .

وداعًا ذئاب الجبل

وداعًا أيتها الدببة

وداعًا بنات آوى ..
إن صديقكم الراعى لن يتردد بعد اليوم على الغابات .
ولن يرتاد الأحراش والأدغال .
أى صديقاتى ربات الشعر
هلم لكن .. ابدأن أناشيد الريف ! .. »

ويسير الشاعر موسخوس على الدرب نفسه .. وله قصائد رائعة رعوية أو ريفية .. من أشهرها تلك القصيدة التى أطلق عليها أمثال ريفية .. وهى تتضمن حِكَمًا مختلفة - يشك الكثيرون فى أنها لموسخوس وحده .. ويشركون ثيوكريتوس وبيون فيها .. وما يهمنا فى هذه القصيدة أنها مثل من أمثلة الأدب التعليمى فى الأدب اليونانى .. وقد جاء فيها :

« يابنى لا تلجأ إلى الناس دون مبرر
ولا تعتمد على الغير فى إنجاز عملك
حاول أن تصنع مزمارك بنفسك
- كل شىء يتم بمشيئة الآلهة -
وبعونهم تهون الصعاب ..
وتنتهى الأمور على ما يرام .. » .

ولا تخرج هذه الأمثلة على ما أثبتناه آنفا من أن الشعر اليونانى كان يخضع لتقاليد جامدة ينتظمها الخوف والذعر والتقديس

والخنوع .. وأنه كان يُقدَّم للصفوة من أبناء الطبقات القادرة على تلقّى العلم .

ويتعلق بهذا التشخيص ظاهرة خاصة عرفت فى الأدب اليونانى على مر العصور ، تلك هى ظاهرة الغزل فى الغلمان - أو الغزل المذكر - وقد ذكر ذلك هيردوت فى كتابه الأول ، وأفلاطون فى مأدبته - ولا سيما فى عصر الإسكندرية - وقد نظم كثير من الشعراء فى هذا اللون منهم على سبيل المثال ما كتبه ثيوكريتوس فى قصيدته التاسعة والعشرين ، والثلاثين .

« إننى واثق من أنك لم تسع إلى حبى ..
وأنك لا تحبنى الآن من قلبك
أما أنا فأعيش بنصف روح
لأن فتنتك استقلت بالنصف الآخر
رضاك يسعد أيامى ..
وإعراضك عنى يردينى فى حلكة الظلام
فهل يرضيك أن تترك حبيبك نهبًا للآلام .. »

وأغلب الظن أن هذا اللون من الشعر قد أدى دورًا عكسيا فى أساليب التربية .. بل كاد يكون شعرًا سريًّا لا يطلع عليه إلا القليلون .. مما جعل الغموض يحيط بما كان يقدم داخل المدارس من الأدب .. وبما لا يقدم .

وأخيرًا .. لقد قصدنا فقط أن نضع خطوطًا عامة يسهل بها المقارنة بين الحضارات القديمة فى آدابها .. خاصة تلك الآداب التى تُقدم فى سن الطفولة .. ومدى اهتمام القدماء بهذه الألوان اعتمادًا على المصادر المتاحة بين أيدينا .

### ٣ - الرومان :

يعتبر الأدب الرومانى بفنونه المختلفة صورة منقولة عن الأدب اليونانى .. ولا يستثنى من ذلك إلا شعر الهجاء .. الذى ابتكره الرومان .. ولم يعرفه اليونان بالصورة التى اتخذها فى الأدب اللاتينى .

وبهذا يمكن أن نفسر الصلة الوثيقة بين الأدبين - الإغريقى واللاتينى - لأن الرومان فى أوائل عهدهم بالأدب .. قد اتخذوا من شعر الإغريق مثلاً اتبعوه فى شكله ووزنه وموضوعه كما تأثَّروا - أدباء وفلاسفة - بمدرسة الإسكندرية .

ويجىء فرجيل على رأس كوكبة الشعراء اللاتين إلا أن قصائده قد امتلأت بالنظريات الفلسفية والأساطير القديمة والاصطلاحات العلمية والتشبيهات المعقدة .

وقد بدأ الأدب اللاتينى فى تلك اللحظة التى اتصل فيها الرومان بالإغريق وقرءوا مؤلفاتهم - أى فى القرن الثالث قبل الميلاد - وكان أول إنتاج لهم ملحميًا على يد ليفيوس وأندرونيكوس كما

انتشر الهجاء السياسى اللاذع على أيدى لوسيليوس وهوراسيوس ..

وازدهرت بعض ألوان الشعر على أيدى كاتولوس – لوكرسيوس – سيسيرو – وغيرهم .. وتراوح بين التقريعات – وبعض الشعر الأخلاقى – ووصف الطبيعة أو الرعويات ( الحقليات عند فرجيل ) .

وكما هى الحال فى الشعر اليونانى .. كانت الآلهة تسود الشعر اللاتينى .. وكان الرومان يعتقدون أن الآلهة ( بيناتيس ) هى التى تشرف على شئون الرخاء والأسرة .. وأن ( لاريس ) إلهة منزلية .

وكانت أعياد الميلاد لدى الرومان أعيادًا لتقديم القرابين للآلهة .

وفى الوقت الذى فتح فيه العرب البلاد التى كانت خاضعة للرومان .. كانت الحضارة السائدة فيها مضطربة منقسمة على نفسها .. خاضعة لتيارات مختلفة متعارضة .

فإلى جانب حضارتى الرومان واليونان الوثنيتين .. جاهدت المسيحية للقضاء عليهما .. ومع هذا احتفظت المسيحية بكثير من تراث الرومان والإغريق .. وحينما تدهورت الدولة الرومانية الغربية – وعاصمتها روما – غزا الجرمان روما .. فهدموا المدن .. وذوت الحضارة وأصبحت الكتب نادرة .. حتى إذا كان القرن السادس الميلادى انعدمت الثقافة تمامًا .. وقُبرت المدارس الرومانية .

ويؤكد المؤرخون أن من أبرز أسباب سقوط الحضارة الرومانية .. ذلك الترف الذى ساد الحاكمين بعد ما أصابوا من أسلاب الدول المغلوبة على أمرها .

ويبدو أن أسباب بقاء هذه الحضارة لم تكن قائمة على أسس قوية تحافظ على استمرارها ، فمن قبل .. قضى الرومان على الحضارة اليونانية بالسيف .. وانتقلت الثقافة اليونانية تلقائيًّا من أثينا إلى الإسكندرية - منذ القرن الثالث قبل الميلاد - ثم تدهورت حتى فتح العرب مصر .

وقد حارب الجرمانيون الحضارة الوثنية الرومانية بنفس أسلوبها مع الحضارة اليونانية كما حاربها كذلك المسيحيون .

صحيح أن المسيحية قد عجزت عن التخلص من ثقافة الرومان واليونان لأن اللغة اللاتينية والإغريقية هما اللغتان المقدستان اللتان صيغت بهما عقائد الدين .. إلا أن ذلك قد ساعد على تعلم الشعائر الدينية ، واعتناق كثير من طرق التعليم المتوارثة ووسائله ، مما ألجأ الكنيسة إلى افتتاح المدارس لتعليم هذه الألوان المختلفة من الثقافة .

ومن ثم نشأت باكورة هذه المدارس فى أحضان الكنائس والأديرة - ولم يجد المسيحيون حرجًا فى قبول جميع الصبيان من كل طبقة وصناعة ليتلقوا التعليم .

وقد كانت هذه المدارس الكنسية الخلية الأولى - فى أوربا -

فيما بعد التى نشأت عنها الجامعات والكليات .

وكان منهج التعليم آن ذاك يضم - إلى جانب العلوم الدينية - علومًا مدنية وأدبية كثيرة . وواضح من هذه الصورة أن كل ما كان يقدم فى هذه المدارس قُصد به تعلم الدين .. ومن هنا خضع الأدب - ومنه الشعر - إلى هذا الهدف .. كما كانت المدارس الملحقة بالكنائس ذات معيشة داخلية مقصورة على طبقة الكهنوت - أو الصفوة - تمامًا كما هى الحال لدى اليونان .

## ٤ - الإمبراطورية الفارسية :

لقد امتدت الإمبراطورية الفارسية من نهر دجلة حتى الهند .. ومن بحر قزوين حتى المحيط الهندى .. وقد تطلب هذا الاتساع ضرورة الدفاع عن هذه الإمبراطورية المتسعة دفاعًا مستمرًا ضد قوى العصابات البربرية فى آسيا .. وضد الإغريق والرومان فى الشمال .

وقد تأسست هذه الإمبراطورية على يد قورش ( ٥٦٠ ق . م ) حينما هزم ملك الميديين ، واستولى على ليديا فى آسيا الصغرى .. وبابل .. ليصبح حاكمًا فى بداية تاريخ إمبراطورية قوية دامت قرنين من الزمان .

وقد خلف الفرس تراثًا متميزًا للأجيال التالية .. وكانت العقيدة الفارسية تقوم على الزرادشتية التى جاء فى ثنايا تعاليمها ( أن العالم

من خلق إله قادر وحكيم خيِّر .. ولكن روح الشر نازعت باستمرار ملكوته ) ، وبهذا قامت هذه العقيدة على أسس الأخلاق و القيم التى تمجد الخير والعمل والأسرة وتنادى بالمساواة بين الناس .

وفى ظل الساسانيين ازدهرت العلوم والفنون .. وكانت البهلوية هى لغة فارس ، ثم حينما فتحها العرب كتبوا أشعارهم وآدابهم باللغة الدرية التى حلت محل البهلوية .. وأخذت مكانها منذ منتصف القرن الثالث الهجرى ( التاسع الميلادى ) .

وقد توثقت الصلة بين الأدبين : العربى والفارسى برغم انتماء كل من اللغتين إلى فصيلتين مختلفتين من اللغات ( فالعربية سامية - والفارسية هندية - أوربية ) وبلغ هذا التأثير مداه حينما كُتبت الفارسية بحروف عربية .

وحينما ندخل مجال التعليم نجد بداية تكشف لنا عن ملامحه فى كلمات الأستاذ ( أكبر مظاهرى ) حيث قال : ويتعلم الطفل مهنة أبيه إذ كان النظام الاجتماعى فى فارس يقضى بتوزيع الناس فى طوائف .. فهم يتوارثون المهن عن آبائهم .

ويؤكد ذلك ( الفردوسى ) حين يقول : لم يسمع أحد عن صانع أحذية أصبح كاتبًا .. فالطفل يتبع مهنة أبيه .. فإن كان كاتبًا علّمه الكتابة والخط .. إلخ .

أما أبناء الأشراف فيتلقون طائفة من المعارف على أيدى المربين .. ولا يذهبون إلى المدرسة الأولية التى تخصص لهم - وفيها

يتعلمون العلوم المقدسة والآداب والموسيقى وغيرها .

وكانت طريقة التعليم هى أسئلة وأجوبة .

وكانت الأم تُعنى بطفلها حتى سن الخامسة فتعلمه الخير والشر .. ثم يعلمه أبوه آداب السلوك .. والتعاليم الخلقية .

ونستنتج من ذلك أيضًا أن التعليم كان مقصورًا على طبقة معينة هى طبقة الأشراف والكتاب ، أما عامة الشعب من الزراع والصناع والمهنيين .. فليس لهم حق فى غير تعلم المهنة .. لأن المدارس كانت ملحقة بالمعابد ولم تكن منفصلة عنها .

وكان الشعر يدرس فى هذه المدارس مع ألوان ومناهج التعليم المختلفة .. ولا شك أن كثيرًا من أشعارهم قد شملت الدعوة إلى الأخلاق .. بما نسميه بالشعر التهذيبى أو التعليمى ، وبما يساير العقيدة السائدة آن ذاك .

وهذه مقطوعة شعرية من كتاب ( أصل الخليقة ) كان يتلقاها التلاميذ .. تقول :

الزمانُ من كلا المخلوقِين أقوى
الزمان من كلٍّ متملِّك .. أملَكَ
الزمان من كل ذى علم .. أعلم
زماننا يمضى .. ويتفرق ..
لا يمكن الروح أن تتخلَّى عن الجسد
ولا حين تطير فى الأعالى .

ولا حين تهوى إلى الحفر ..

ولا حين ينتهى مقامها فى الدنيا ..

ومن النصوص البهلوية - فى العهد الأشكانى - قطعة شعرية بعنوان ( الشجرة الآشورية ) وهى - النخلة - والحوار فيها بين النخلة والتيس أيهما أفضل من الآخر .

والقيمة الأدبية لهذه القصيدة ضئيلة .. وإن شفت عن نزعة الحوار التى سادت الأدب البهلوى..وقد نظمت فى ست مقاطع هجائية.

ولعل هذا النص يؤكد لنا ظاهرة ولع بها الأدباء الفرس فى كل زمان .. ألا وهى قصص الحيوان .. خاصة تلك التى شملها كتاب ( كليلة ودمنة ) وكانت فارس أول الأبواب التى سمحت بانتشاره والتعرف عليه .

و ( كليلة ودمنة ) هندى الأصل .. وقد عثر على معظم أبوابه فى كتابى ( بنج تنترّا ) و ( هتو بادشا ) من الكتب الهندية .

ثم ترجم إلى البهلوية فى عهد كسرى أنو شروان - نقله بعض أطباء الفرس الذين ساحوا فى بلاد الهند .. ثم ترجم إلى العربية على أيدى عبد الله بن المقفع - كاتب أبى جعفر المنصور العباسى .. وقد أضاف إليه القليل من عنده .

وقد نظم هذا الكتاب فى العربية أكثر من مرة .. وكان مصدرًا من مصادز شعر الأطفال على مدى العصور ، وسوف نعود إليه مرة أخرى حينما نتحدث عن الشعر على ألسنة الحيوان والطير .

# شعر الأطفال فى التراث العربى

مفهوم واحد .. أو .. كثرة :

وصولاً إلى التعرف على نظرة العرب لأبنائهم الصغار . رأينا أن نعود إلى معاجم العربية لكى تقودنا إلى مفهوم ( الطفل ) الذى يمثل محور هذه الدراسة .

وهناك فى هذه المعاجم أكثر من مادة - قد تجتمع وقد تختلف - تأخذ بأيدينا إلى هذا الهدف . ..

ففى لسان العرب .. نستطيع أن نلتقط هذه المفردات :

* الحدث : هو الشاب فتىّ السن .
* الصبى : من لَدُنْ يولد إلى أن يُفطم .. أو هو الغلام .
* الصِّبا : الصغر فى السن .
* ويقول أبو الهيثم : الصبى يدعى طفلاً حين يسقُط من بطن أمه إلى أن يحتلم .
* الناشئ : هو فويق المحتلم ، أو هو الحدث الذى جاوز حدَّ الصغر ، ومن بلغ الحلم فجرى عليه حكم الرجال ..

هذا ما قالته المعاجم اللغوية .. فماذا عند علماء النفس .

تكاد تجمع كثير من المراجع الموثوقة أن الحدث هو الطفل الذى لم يصل إلى سن البلوغ الجسمي والعقلى والانفعالى .. بمعنى أنه لا يزال فى دور التذبذب والتغيير ولم يصل بعد إلى حالة الثبات أو ( النضج ) . وتنتهى هذه المرحلة فى سن ١٦ أو ١٨ سنة .

ولو أخذنا بالتوفيق بين معاجم اللغة وآراء علم النفس لن نجد اختلافًا كبيرًا ، فحيث تقول المعاجم إن الناشئ ( فويق المحتلم ) .. فقد يصل مدى هذا ( الفويق ) إلى سن ١٦ سنة ، وتكون تلك المفاهيم على كثرتها تقترب على معنى احد ، أو تُحدد فى سنوات واحدة تنتهى عند هذه السن .. سواء كان طفلاً أم حدثًا .. أم صبيًا أم غلامًا أم ناشئًا .

لكن الأمر الذى يحق لنا أن نسلِّط عليه الضوء .. هو نظرة العرب إلى هذا الطفل ..

لقد رأينا كيف نظر القدماء - فى مصر القديمة على وجه الخصوص - إلى الطفل على أنه رجل صغير .. لهذا وجدنا تلك الآداب التى كانت تقدم له تحترم فيه عقله .. ومستوى نضجه بل تأخذ به من تلك المرحلة الصغيرة إلى مرحلة قد ينظر إليها المحدثون على أنها أكبر من سنه ومن مستوى تفكيره .

وتظل هذه النظرة قائمة وخالدة - خلود تلك الحضارة القديمة - إلى أزمان تالية .. ترى ماذا كانت نظرة العرب .. أهى

امتداد لتلك النظرة القديمة أم أنها انقلبت فعاملت الطفل على أنه كائن مهمل لا يستحق هذا التقدير .

إن خير ما يدلنا عل هذه النظرة - خاصةً فى العصر الجاهلى - ما وصل إلينا على أيدى أدباء وشعراء تلك الفترة القديمة .. ونبدأ بأشهر قصيدة فى الفخر تلك المعلقة التى قالها عمرو بن كلثوم مباهيًا مفاخرًا ، ومزدريًا محتقرًا عمرو بن هند لأنه أهان أمه ..

فبعد أن صال وجال بصور الفخر بقبيلته - بنى تغلب - قال :

ألا أبلغ بنى الطمَّاح عنا ودُعميًا .. فكيف وجدتمونا
إذا ما المْلك سام الناس خسفًا أبينا أن نُقِرَّ الذلَّ فينا
ملأنا البرَّ حتى ضاق عنا وماءَ البحر نملؤه سفينا
إذا بلغ الفطامَ لنا صبىٌّ تخرُّ له الجبابرُ ساجدينا

صحيح كان هذا فى مجال الفخر وربما وجدنا فيه بعض المبالغة . لكن ما يهمنا فيه هى نظرة العرب إلى أبنائهم منذ وجدوا وفتحوا أعينهم على الحياة .. إن الشاعر هنا يؤكد أن الصغير لا يفترق عن الكبير من حيث كونه عضوًا من أعضاء القبيلة له حقوقه تمامًا مثل الكبير - يُسجد له كما يُسجد للكبير - ويُحترم ويقدَّر مثله تمامًا .. والمعروف أن الشاعر هذا نفسه ساد قبيلته وهو فى الخامسة عشرة .

المهم فى الأمر هنا أنه ليس كَمًّا مُهملاً ينتظر الاعتراف به حينما يبلغ سنًّا معينة .. لكنه منذ يُفطم عن ثدى أمه ( فصالُه فى عامين ) يصبح شيئًا مذكورًا ..

مثلٌ آخر تورده كتب التاريخ الأدبي فى ذلك العصر على لسان ( بشامة بن حزن النهشلى ) حيث يقول :

إنا – بنى نهشل – لا نَدَّعِى لأب  عنه ولا هو بالأبناء يَشرينا
إن تُبْتَدَرْ غايةٌ يوما لمكرمةٍ  تلقَ السوابقَ منا والمصلينا
وليس يهلِك منا سيدٌ أبدًا  إلا افْتَلَيْنَا غُلامًا سيِّدًا فينا

إلى هذا الحد يمكن للقبيلة أن تختار غلامًا – صغيرًا – لا رجلًا محنكًا خبيرًا ليكون سيد القبيلة .. أيكون بعد هذا شك فى أن نظرة العرب إلى أبنائهم نظرة رجل لرجل .. أو هم بالأحرى – يربونهم على هذا المسلك القويم – على أدنى التصورات –

وهذا حاتم الطائى المشهور بالكرم والجود يأمر غلامه – وهو العبد المطيع – أن يوقد النار على يفاع من الأرض فى الليلة الباردة .. الشديدة .. فإن جلبت النار ضيفًا فهو حر ..

أوقد فإن الليل ليل قَرّ  والريحُ يا غلام ريحُ صَرّ
علّ يرى نارك من يمرّ  إن جَلَبَتْ ضيفًا فأنت حرّ

ولابد أن يكون مثل هذا الحوار الصادق بين طرفين يفهمان جوهر المعنى .. ولولا هذا ما وصل المعنى الذى يقصده حاتم إلى غلامه العبد.. ويسعى الغلام إلى عمله طمعًا فى الحرية .

فإذا ما عبرنا الجسر إلى عصور الإسلام المختلفة تتأكد هذه النظرة مع ارتفاع المستوى الثقافى والعقائدى .. ونبذ كثير من عادات الجاهلية .

وفى هذا الصدد يروى عن النبى ﷺ أنه كان يرقِّصُ الحسن - أو الحسين - ويقول :

حُـــزُقَّـــةٌ حُـــزُقَّـــةْ تَـــرَقَّ عَـــينَ بَقَّـــةْ

ويشرح المعجم لفظة حُزُقَّة بأنه الضعيف الذى يقارب خطوُه من ضعف .. وترق : بمعنى : اصعد - أما عين بقة : فكنايةٌ عن صغر العين ..

وما يهمنا من هذا الموقف أن الإسلام - وعلى رأس دعوته محمد عليه السلام - يهتم بالطفل وإن كان ضعيفًا صغيرًا - ويدعوه إلى أن يرقى ويصعد ويصبح شيئًا مذكورًا ، كما تشير معاجم أخرى إلى أن ( الحزُقة ) يقصد به الرجلُ الصغير .. ويُكنى به الطفل ..

وهذا موقف يندر أن يوجد يحكيه الشاعر الحُطيئة فى حوارية بينه وبين ولده الصغير ، من قصيدته الشهيرة التى مطلعها :

وطاوى ثلاث عاصب البطن مرحل ببيداء لم يعرفْ بها ساكن رسما

إن الحطيئة وأولاده لم يذوقوا طعامًا منذ ثلاث ليال .. وقد عصب بطنَه من الجوع .. وحينما رأى شبحًا ضعيفًا من بعيد كثر همه وحزنه :

رأى شبحًا وسط الظلام فراعَهُ فلما رأى ضيفًا تشمَّر واهتمَّا

وقال : هيا ربَّاه ضيفٌ ولا قِرى بحقك لا تحرمْه تا الليلة اللَّحما

ثم يأتى بموقف ابنه على هذا النحو :

وقال ابنه لما رآه بحيرةٍ أيا أبتِ اذْبحْنى ويسِّرْ له طُعما
ولا تعتذر بالعدم عل الذى ترى يظنُّ لنا مالا فيوسعنا ذَمَّا

ويهم الخطيئة بذبح ولده - كما حدث فى قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام - لولا أن رأى قطيعًا من الأتن الوحشية عن بعد .. كأنما أرسلتها العناية الإلهية فداء للصبى الصغير .

لقد دخل الأولاد هكذا قضايا الكبار .. وأصبحوا طرفًا فيها .. بل عليهم أن يفكروا فيها ويقدموا لها حلولا ..

ولا شك أن مجتمعًا يُنظر فيه إلى الأطفال تلك النظرة .. هو مجتمع مكتمل القيم .. إنه مجتمع حَدَا بأحد الشعراء - حطّان بن المُعَلّى - أن يُجَسِّد حبه لأولاده .. وأن يقدر وجودهم فى حياة الكبار فى قصيدة تخلد على مدى الأيام .

أنزلنى الدهر على حُكْمِه من شامخ عالٍ إلى خَفْضِ
وغالنى الدهرُ بوفر الغِنى فليس لى مالٌ سوى عِرضى
أبكانىَ الدهرُ ويا ربما أضحكنى الدهرُ بما يُرضى
لولا بُنياتٌ كزُغب القَطَا رددن من بعض إلى بعضِ
لكان لى مضطربٌ واسع فى الأرض ذاتِ الطول والعَرضِ
وإنما أولادُنا بيننا أكبادُنا تمشى على الأرضِ
لو مرت الريحُ على بعضهم لامتنعت عينى عن الغمضِ

ومن المآثر القديمة .. قيل لأعرابى : صف ابنك .. قال : وُلد

الناس أبناء .. وولدته أبًا يُحسن ما أُحسن .. ولا أُحسن ما يُحسن !

والأمثلة كثيرة لا تقع تحت حصر فى نظرة العرب إلى أبنائهم على أنهم مشاركون فى صنع الحياة بل هم عناصر إنتاجية فى المجتمع .. يعملون ويحاربون .. ويصاحبون القوافل .. وغير ذلك من الأعمال التى يقوم بها الكبار .

**القراءة والكتابة لدى العرب :**

عن البلاذرى فى فتوح البلدان :

* دخل الإسلام وفى قريش سبعة عشر رجلاً كلهم يكتب : عمر بن الخطاب - وعلى بن أبى طالب - وعثمان بن عفان .. إلخ .

وجاء فى فتوح البلدان كذلك :

* وكان بعض اليهود قد عُلِّم كتابَ العربية وكان تعلمه الصبيان بالمدينة فى الزمن الأول ، فجاء الإسلام وفى الأوس والخزرج عدةٌ يكتبون .

ومن المعروف أن النبى ﷺ افتدى أسرى بدر بتعليم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة .

أما الإناث فقد كان منهن كاتبات كذلك قبل الإسلام ، منهن الشفاء بنت عبد الله العدوية ، وحينما جاء الإسلام تعلمت القراءة

والكتابة كل من حفصة زوج النبى - وأم كلثوم بنت عقبة .. وعائشة بنت سعد وغيرهن .. ( البلاذرى ) .

وما نقصده من هذه الحقائق أن العصر الجاهلى كان يعتمد على الرواية والحافظة والذاكرة .. فلم يكن لديهم نظام للتعليم أو دور يتلقى فيها الصبيان العلم .

وكانت الصحراء مرتعًا خصبًا لتعلم الصبيان فنون الشعر والحرب والعمل جميعًا .

لكننا نستطيع - مع هذا - أن نلتقط ملمحا مهمًّا فى ذلك العصر .. ذلك أن الشعر - ديوان العرب وسجل حياتهم - لم يكن يبتعد عن ذهن الصبيان .. وربما فرَّق الناس فى هذا العصر بين فنين شعريين • فن ترقيص الأطفال الصغار - الذين لا يدركون للغة معنى ، لكنهم يحسون النغم والموسيقى - وما نحا نحوه - وفن الشعر سواء قاله وسمعه الصغار أو الكبار ، فى سن مبكرة أو سن كبيرة .

## ( ا ) شعر ترقيص الأطفال :

ينتمي هذا اللون من الشعر إلى ( الشعر الشعبى العربى )[1] .. ويطلق عليه كذلك أغانى المهْد .. أو أغانى الطفولة .. وهذا اللون

---

( ١ ) قد يصعب العثور على نصوص الشعر الشعبى لدى العرب لعدم اهتمام المؤرخين به .. لكن د . حسين نصار استطاع أن يلم بملامحه العامة فى كتابه ( الشعر الشعبى =

موجود لدى كثير من الشعوب قديمها وحديثها .. يتغير ويتطور مع ظروفها الاجتماعية وتغير الظواهر اللغوية ..

وقد اشتهر هذا اللون عند العرب باسم ترقيص الصبيانِ .. ويبدو من النماذج التي سوف ترد هنا أن العربي حينما كان يرقص أبناءَه – أو بناتِه – إنما يضع في كلماته المنغمة ما يتمناه لهم – أو لهن – من التمسك بالقيم والفضائل ومن الغد الأفضل .

ولا نكاد نجد اختلافًا كبيرًا بين هذه المعاني القديمة .. والمعاني العصرية اللهم إلا فروق اللغة والعصر .

أما الذكور فكان العربي حريصًا على ترقيصهم على بحر الرجز المطيع لهذا الغرض .. ومن هذه الأمثلة مارُوى عن أعرابي قوله :

يــا حـبـذا روحُـه وملمسُـهُ
أصلحُ شىء ظـلُّه وأكـيـسُـهُ
الله يـرعـاهُ لى ويحـرسُـهُ

وهى كما نرى ترقيصة فخر ودعاء معًا لولده الصغير .. على حين نجد آخر يعبر عن حبه الشديد لولده فى قوله :

---

= العربى ) المكتبة الثقافية / ٦٠ ( أول مايو ١٩٦٢ ) – وضمنه فنون الرجز – وأغانى الأفراح – وأغانى الطفولة – وأغانى الآبار – وأغانى البناء – والحداء – وأناشيد الحروب – والنواح – وأدعية المتسولين .. مما كان يكتب بالفصحى قبل انتشار العامية والزجل وفنونه .. والجدير بالذكر أن هناك خطأ شائعًا الآن يقول بأن الأدب الشعبى – وخاصة الشعر – هو ما يكتب بالعامية .. مع أن أدب العامة – هذا إقليمى ولا علاقة له بمصطلح الأدب الشعبى ا.

أحبُّـه حبَّ الشحيحِ مـالَـهُ
قد كان ذاقَ الفقـر ثم نالَـهُ
إذا أراد بـذلَـه بـدَا لـهُ

ولأن الأم العربية هى التى تقوم بتربية الطفل صغيرًا .. فقد كان لها الفضل فى تنشئة الأولاد على المثل العليا فى الشجاعة والإقدام والكرم وكسب الشرف وغير ذلك من الصفات الحميدة .. ولهذا ينشأ الولد نشأة الرجولة والعزة .

هذه أم الفضل بنت الحارث ترقِّص ولدها عبد الله بن العباس فتدعو على نفسها بالموت إن لم يكن مقدرًا لابنها أن يكون سيد قومه :

ثكِلتُ نفسى .. وثكلتُ بِكرى     إن لم يَسُدْ فِهرًا وغيرَ فهرِ
بالحسَبِ الوافى .. وبذلِ الوفر     حتى يُوَارى فى ضريحِ القبرِ

وهذه هندُ بنتُ عتبة زوجُ أبى سفيان ترقِّص ولدها معاوية وكأنها ترضعه تنبؤاتها فى المستقبل :

إنَّ بُنَىَّ مُعْـرِق كـريـم     محببٌ فى أهله حـليـم
ليس بفحَّـاش ولا لئيـم     ولا بـطخـرور ولا شئـوم
صخر بنى فهرٍ بـه زعيم     لا يُخلِفُ الظَّنَّ ولا يخيم[1]

وكانت ( منفوسة ) بنت زيد الخيل ترقِّص ولدها « حكيم »

---

( ١ ) الطخرور : الضعيف غير الجلد - يخيم : يجبن - وصخر بنى فهر : هو صخر بن حرب أبو سفيان والد معاوية .

من دريد بن الصِّمَّة .. فتدعوه إلى التشبه بأبيه أو أخيها فى الفروسية والبطولة .. بل كانت ترى أن أباها ( زيد الخيل ) أكبر من أن يدرك قدرَهُ ابنُها .. وفى هذا تقول :

أشْبِــه أخى أو أشبِهَن أبــاكــاَ
أمــا أبى فلن تنــالَ .. ذاكــا
تقصــرُ عن منالِــه .. يــداكــا

وقد تعمد المرأة إلى المداعبة .. ويصير موقف المراقصة مبتكرًا تلقائيًّا .. كهذا الموقف الذى يحكى عن جارية الزبير ابن عبد المطلب حينما رقّص جماعةً من أولاده .. فدخلت عليه الجارية تقول : مدحت ولدَك وبنى أخيك .. ولم تمدح ابنى « مغيثا » .. فقال الزبير : علىّ به عجليه ، فجاءت به .. فأنشده مراقصًا :

وإن ظـنى بمغـيـث إن كــبر
أن يسرق الحج إذا الحج كثُر
ويوقر الأعيارَ من قِرْفِ الشجر[1]
ويــأمــر العبــدَ بليــلٍ يعتــذر
ميراث شيخ عاش دهراً غيرَ حر

ومن ترقيص الزبير بن عبد المطلب كذلك .. تلك الأبيات التى

---

( ١ ) الأعيار : الخطوط البارزة فى وسط ورقة الشجرة - قرف الشجرة : قشرها .

رقص بها أخاه العباس ووصفه فيها بالعفة والكرم والوفاء والشرف :

إن أخى عباس عفٌّ ذو كرمْ
فيه عن العوراء إن قيلت صَمَمْ
يرتاح للمجد ويوفى بالذِّمَمْ
وينحر الكوماء فى اليوم الشَّيَمْ[1]
أكرم بأعراقِك من خال وعمْ

أما ترقيص البنات .. فقد انتشر كذلك فى البيئة العربية .. حيث كان العربى يتمنى لابنته ما يتمناه للحسان حينما يكبرن .. ومن هذا ما قاله عربىٍ يرقص ابنته :

كريمةً يحبها أبوها
مليحةَ العينين عذبًا فوها
لا تحسن السبَّ وإن سبُّوها

وكأنه يمهد لها عند من لا يعرفها بصفات تؤهلها لحياة طيبة مع زوجها .. فهى حسناء طيبة الريح عذبة الفم كريمة النفس والخُلق .. تُرضى زوجها من قبل ومن بعد ..

وقال الزبير بن عبد المطلب وهو يرقص ابنته أم الحكم فيشبهها بالظبى :

---

( ١ ) الكوماء : الناقة لأن لها سنامًا .. اليوم الشيم : المقصود به اليوم الذى لا خير فيه ولا رزق .

يـــا حـــبـــذا أم الحـــكـــمْ
كـــأنها ريــــم أحــــمْ
يـــا بعلهـــا مـــاذا يـشـمْ
ســـاهـم فيــهـــا فسَهَـمْ

وهذه أم تتكئ على ترقيصة عذبة لابنتها الصغيرة لتقول من خلالها شيئًا لزوجها .. فقد روى أن أعرابيًّا يُدعى أبا حمزة الضبِّى كان قد هجر امرأته .. لأنها لا تلد الذكور فكان يقيل ويبيت عند بعض الجيران .. ومر يومًا بخباء امرأته فوجدها ترقِّص ابنتها بهذه الكلمات التى رققت قلبه .. فولج البيت بعدها وقبَّل رأس امرأته وابنته وعاد إلى بيته :

مـــالأبى حـمـــزةَ لا يـــأتـــيـــنـــا
يـظلُّ فى البيت الـذى يلينـــا
غضبـــانَ أن لا نَـلِدَ البـنيـنـــا
تـــا الله .. مـــاذلـك فى أيـديـنـــا
وإنمـــا نـــأخـــذ مـــا أُعـــطينـــا
ونـــحن كـــالأرض لـــزراعـيـنـــا
نُنبتُ مـــا قـــد زرعـــوه فينـــا

وقد سادت البيئة العربية - جاهلية وإسلامًا - نماذج متفرقة من هذه الأشعار أو الأراجيز أو الأغانى التى يرقِّص بها الأباء والأمهات الصغار .

وقد مر بنا كيف كان النبى ﷺ - نفسه - يرقِّص الحسن والحسين بكلمات قليلة وهو سعيد باللعب معهما ..

بل إن النبى نفسه قد رقَّصته أختُه ( شيماء ) فى بادية بنى سعد بهذه الأبيات :

يــاربنــا أبقِ لنــا محمــدا
حــتى أراه يــافِعــاً وأمــردا
ثــم أراه سـيــدًا مـــسـوَّدا
واكبِتْ أعــاديــه معًــا والحسـدا
وأعــطه عِــزا يــدوم أبــداَ

ومثل هذه النماذج على ما يبدو من كثرتها - لا تمثل تيارًا فى الشعر العربى .. على الرغم من أهميتها فى تربية الصغير .. ربما لأن مؤرخى الأدب قد شغلهم تدوين الشعر العربى الرصين عن أن يدوِّنوا هذا اللون الذى يُعد بحق سبقًا فى آداب العالم ..

وهذا الإهمال فى التدوين كاد يطفئ ملامح صورة الشعر الذى يقدم للصغير .. ويستمتع به ويصمت عن بكائه إذا أنصت وأصغى إليه .. ذلك أن الحس الجمالى .. أو التذوق الفنى لدى أولاد العرب الصغار قد أنشأهم على حب التأمل .. وعلى محاولة تقليد الكبار فى قرض الشعر فى أحيان كثيرة أهملها أيضًا المؤرخون - مما سوف نعرض له فيها بعد ..

ولو أننا أمعنا النظر فى مثل هذه المقطوعات لوجدناها - مع

سهولة إيقاعها - تلتزم لغة العرب التى كان الشعراء الكبار يكتبون بها أروع قصائدهم .. لكن يبدو أن المؤرخين قد ظلوا زمنا طويلاً يستهينون بإيقاع الرجز - مما أُهملت معه تلك النماذج - فقد اختلف عليه النقاد والمؤرخون وأخرجه الكثيرون من فن الشعر .. حتى أن أبا العلاء المعرى - نفسه - عندما صور جنته فى رسالة الغفران وأدخل فيها الشعراء .. لم تطاوعه نفسه المتأثرة بالتراث القديم أن يدخل الرُّجاز فى جنة الشعراء .. فأفرد لهم جنة خاصة .. جعل بيوتها أحطَّ وأقل درجات من قصور جنة الشعراء .!

غير أن الحقيقة التاريخية تؤكد أن الرجز أقدم ألوان الشعر التى عرفها العرب ..

ويرى المستشرق ( جولد تسيهر ) أن الرجز نشأ عن السجع بعد أن أُخضع للوزن .. على حين يرى المستشرق ( هارتمان ) أننا يمكننا أن نُرجع إلى الرجز خمسة وعشرين بحراً من البحور المستحدثة ، ذلك أن العرب سموه كذلك من الرجز الذى يعترى الناقة أو البعير - وهو ارتعاد فى الأفخاذ والمؤخر عند القيام - وفى هذه الحالة يتصل الرجز بالحداء .

وربما ضاعت هذه النماذج - الترقيصات - وغيرها من الرجز العربى لأن كثيرًا منها كان يقال ارتجالاً دون إعداد سابق مما صعب حفظه أو تدوينه - فيما بعد -!

وبالرغم من كل هذا فإن ترقيص الأطفال كان فنًّا ماثلاً من

فنون الشعر العربى .. عرفه العرب وأبدعوا وأجادوا فيه .. كعنصر من عناصر التربية النفسية والجمالية للصغار ..

كما يمكننا كذلك أن نؤكد بكثير من الارتياح أن هذه الترقيصات كان يؤديها الكبار إلى أبنائهم أو بناتهم .. مصحوبة بمناغاة خاصة أو ربْتٍ على صدر الصغير .. أو هزٍّ لمهده .. مما يجعله سعيدًا بما يسمع - دون أن يتبين معانى ما يسمع - اكتفاءً بما تُحدثه الأبيات من إيقاعات وأنغام تلمِس وجدان الصغير لمسًا حميًا ممتعًا .

لكن الأمر بطبيعة الحال يختلف حينما يتعرف الطفل على اللغة تعرفًا حقيقيًّا .. ولنا معه وقفة أخرى بعد قليل .

### (ب) أغانى الألعاب عند العرب :

الطفل بطبيعته يميل إلى اللعب - منفردًا أو مع أقرانه - ويميل إلى ممارسة ألوان مختلفة من الألعاب الرياضية ، حتى أن الإسلام يدعو إلى تعليم الأولاد الرماية والسباحة وركوب الخيل .

والطفل العربى قد وجد لعبته فى بيئته الصحراوية .. يستمد منها أدواته وأفكاره المبتكرة وهى كثيرة فى التراث العربى[1] وكتب عنها كثيرون مثل أبو إسحاق الشيرازى وغيره .

أما ارتباط الألعاب بالشعر .. فالتراث العربى حافل بهذه

---

( ١ ) انظر تفصيل ذلك فى كتاب ( لعب العرب ) - أحمد تيمور باشا - دار نهضة مصر - القاهرة ١٩٧٧ .

النماذج التي قالها شعراء كبار في أعمارهم الصغيرة .. أو الكبيرة .. فصارت مثلاً أو صارت أغاني تنشد في أثناء ممارسة اللعبة ..

ومن هذه الأمثلة قول امرئ القيس في لعبة الزحلوقة ( الأرجوحة )

لمن زُحْلُوقةٌ زلٌّ
بها العينان تنهلُّ
ينادي الآخر .. الألُّ
ألا حَلُّوا .. ألا حلُّوا[1]

ويفسر المفضل قول امرئ القيس ( ألاحلوا ) بأن هذا معنى لعبة الصبيان ، إذ يجتمعون فيأخذون خشبة - فيضعونها على كومة رمل .. ثم يجلس على أحد طرفيها جماعة .. وعلى الطرف الآخر جماعة .. فأى الجماعتين كانت أكثر .. ارتفعت الأخرى .. فينادون أصحاب الطرف الآخر ( ألا حَلُّوا ) أى خففوا عن عددكم حتى نساويكم في التعديل .. وهكذا !

وهناك لعبة أخرى تسمى ( الحَدَبْدَبَى ) .. ويعتقد أنها يُكنى بها عن الرغبة في تجميع الصبيان للاستماع إلى قصة أو قصيدة شعر .. أو لبداية لُعبة أخرى :

ومن هذه الكتابات ما قاله راجز :

---

( ١ ) لاحظ بقاء مفردة ( حلوا ) إلى العصر الحديث على ألسنة الأطفال .

حَدَبْدَبَى بَدَبْدَبَى منك الآنْ
استمعوا أُنشدُكُمْ يا صبيانْ !

أما وصف هذه الألعاب شعرًا فهو كثير - وليس هذا مجاله - إذ استخدمها الشعراء كثيرا فى أغراض الهجاء والفخر وغير ذلك مما يلائم الموقف .

(جـ) الحُداء :

لم يكن الحادى شاعرًا محترفًا لدى العرب .. لكنه كان أقدر عليه من غيره على أن يسلِّى أفراد القافلة .. وأحيانًا كان يستعين بالصبيان فى ترديد حدائه .

وأغراض الحُداء كثيرة .. وكلها تتعلق بحالة السفر وما تفرضه هذه الحالة من تذكر الديار .. والأولاد .. ووصف الصحراء والليل .. والشوق والحنين ..

وقد أثر عن النبى ﷺ أنه جعل فى بعض أسفاره حاديًا للرجال هو البراء بن مالك .. وآخر للنساء هو أنجشة .

وكان الحادى - مثل المرقص لأطفاله - يرتجل غالبًا ما يقوله دون إعداد سابق .. بما يوحى به الموقف .. فى كلمات سهلة ميسورة تسر الكبارَ والصغار معًا .

وقد اشتهر عن عبد الله بن رواحة هذه الكلمات حينما أخذ بخطام ناقلة الرسول الكريم وهو داخل مكة فى العمرة التى قام بها

بعد صلح الحديبية بعام .

خلُّوا بنى الكفارِ عن سبيله
يارب أنى مؤمن بقيله
أعرف حقَّ الله فى رسوله

وهذا الفن نستطيع أن نضيفه إلى ما يمكن أن يُربى عليه أطفالُ الإسلام .. لسهولة معانيه وطلاوة ألفاظه .. بل نكاد نجد هذا المثل الخالد الذى لا يزال يعيش فى وجدان المسلمين جيلا بعد جيل يذكرنا بالهجرة الشريفة .. فلا نحيد كثيرًا عن هذا الظن .

طلع البدرُ علينا
من ثنيات الوداعْ
وجب الشكرُ علينا
ما دعا لله داعْ
أيها المبعوثُ فينا
جئت بالأمرِ المطاع
جئت شرَّفْتَ المدينة
مرحبًا ياخيرَ داع ..

## ( د ) وصايا الآباء للأبناء :

كان العرب أول ما يفعلون مع أولادهم حينما يدركون .. أن ( يسمعوهم ) الوصايا والمواعظ التى تضىء لهم طريق حياتهم ..

ومنذ كتب الحكيم لقمان وصاياه .. وكل الشعوب لها آثارها من الوصايا .. ولم يتخلف العرب عن ذلك ، بل نجدهم قد أكثروا من ذلك حرصًا على تربية النشْء على القيم الصالحة .

وقد تكون الوصايا نثرية .. وقد تكون شعرية – والنثرية أكثر .

كما يمكن أن نجد أكثر من لونٍ من الوصايا .. بعضها مباشر .. وبعضها معاتب .. وبعضها يرغِّب وبعضها يرهِّب .

فهذا أمية بن أبي الصلت يعتب على ولده بقوله ؛

غَذَوْتُك مولودًا وعِلتُكَ يافعًا ... تعلُّ بما أسعى عليه وأنهلُ
إذا ليلةٌ جاءتكَ بالشكوِ لم أكن ... بشكواك إلا ساهرا أتململِ
كأنِّي أنا المطروقُ دونك بالذى ... طرقتَ به دونى فعينىَ تهملِ
تخافُ الردى نفسى عليكَ وإنها ... لتعلم أن الموتَ وقتٌ مؤجلِ
فلما بلغت السنَّ والغايةَ التي ... إليها مدى ما كنتُ قبل أُؤَمِّلِ
جعلت جزائى غلظةً وفظاظةً ... كأنك أنت المنعمُ المتفضلِ
فليتك إذ لم تَرْعَ حقَّ أُبوتى ... –كما يفعل الجارُ المجاورُ– تفعلُ

إننا نستطيع هنا أن نتلمس الوصية والحكمة والنصح بطريقة فنية غير مباشرة .. وهذه ميزة مهمة من ميزات الشعر العربي ، إذْ تُمكِّن اللغةُ الشاعرَ – بما تحمل من إيحاءات وصور ومترادفات – أن يغوص إلى جوهر المضمون – دون أن يلمس سطحه فتنفر منه الأذن ويعافه الوجدان .

وفى إيجاز شديد يقدم سفيان بن عيينة هذه الكلمات إلى ولده ..

بنى إن البرَّ شىء هيِّنٌ وجهٌ طليق .. وكلامٌ ليِّنُ

وهذا ابن سعيد المغربى - أحد شعراء القرن السابع الهجرى - يوصى ولده وقد أراد السفر فيقول :

أودعك الرحمنُ فى غربتِكْ مـرتقبًا رحمـاه فى أوْبتِكْ
فلا تُطِلْ حبلَ النوى إننى والله أشتـاقُ إلى طلعتكِ
واختصر التوديع أخذًا فما لى ناظرٌ يقْوَى على فُرقتكْ
واجعلْ وَصاتى نصبَ عينٍ ولا تبرحْ مدى الأيامِ من فكرتِكْ
خلاصةُ العمر التى حُنِّكتْ فى ساعةٍ زُفَّت إلى فطنتِكْ
فلا تنمْ عن وعيها ساعةً فـإنها عونٌ إلى يقـظتـكْ
وامشِ الهوينَى مُظهِرًا عفةً وابغ رضَا الأعين عن هيئتِكْ
واعتـبرِ الناسَ بـألفاظِهِمْ واصحب أخًا يرغب فى صحبتِكْ

والقَصيدة طويلة تكاد لا تترك شيئًا يصلح أن يكون وصية إلا جاءت به ..

وعلى هذا النحو أيضًا يسير عبدة بن الطبيب ( المتوفى سنة ٣٩ هـ ) فيقول :

أَبَنِيَّ إنى قد كبِرت ورابنى بصرِى وفىَّ لَمنظرٌ مستمتعُ
أوَصيكُمْ تقوى الإلهِ فإنه يُعطى الرغائبَ من يشاءُ ويمنعُ

وكثير من الوصايا النثرية تتضمن الشعر أيضًا .. ليكون قاسمًا مشتركًا فى تربية الطفل على الذوق السليم والحكمة والقيم العليا .

ومن هذه الوصايا التى تجمع بين الشعر والنثر .. وصية يعرُب بن قحطان إلى بنيه .. حيث أخذ يوصيهم ويوصيهم حتى أنشد فى نهاية كلامه :

بَنِىَّ أبوكُمُ لم يعْدُ عما به وصَّاه قحطانُ بنُ هودِ
فوصّاكم بما وصَّى أباكم أبوهُ عن أبيهِ عنِ الجدودِ
أذيعُوا العلمَ ثم تعلَّمُوهُ فما ذو العلم كالكَلِّ البليدِ

ويسوق كثيرًا من التعاليم والوصايا المفيدة ..

وتكاد تشى هذه الوصية بأمر مهم ، هو أن العرب منذ وجدوا على ظهر الأرض وهم يتوارثون الوصايا والعلم والخلقُ الطيب .. بما جعلهم خير أمة أخرجت للناس .

وشاعر مثل طَرَفة بن العبد ( ٥٤٣ - ٥٦٩ م ) أنطقته الحكمة وهو صغير .. ومكث يضرب الأمثال وينشد الوصايا وكأنه خبير بالحياة خبرة الشيخ الحكيم .. ومن أمثاله ووصاياه :

الخير خيرٌ .. وإن طال الزمانُ به والشرُّ أخبثُ ما أوعيْتَ من زادِ

وأيضا :

خالطِ الناسَ بخُلْقٍ واسعٍ لا تكنْ كلبًا على الناسِ تهر

كما تدل الأبيات التالية على سعة أفق .. وحكمةٍ اجتماعية عميقة :

إذا كنتَ فى حاجةٍ مُرْسِلًا فأرسل حكيمًا ولا توصِهِ

وإن ناصحٌ منك يومًا دنا فـلا تنْأ عنـه ولا تُقْصِـهِ
ولا تذكر الدهرَ فى مجلسٍ حديثًا إذا أنت لم تُحْصِهِ

**الشعر العربى لا يفرق بين المتلقين ! :**

قد يبدو فى هذا الحكم كثير من التجاوز عن الحقيقة ، إذا نظرنا إليه فى إطار الشعر المعاصر ، لكن الأمر يختلف تمامًا ويصيب كبد الحقيقة إذا نظرنا إلى تراثنا الشعرى القديم .

وهب أننا تساءلنا عن غيبة هذا اللون من الشعر - بملامحه المتعارف عليها - أى شعر الأطفال .. من تراثنا الشعرى القديم .. ترى ماذا يكون الجواب .. ؟

إن محاولاتنا الآنفة لاستبطان التراث الشعرى .. واستخراج هذه الألوان - التى لا تمثل ظاهرة أوتيارًا - تضعنا أمام مأزق شديد .. أو مواجهة قاسية .

ولنتساءل ونحن أمام تلك الحقيقة .. هل كان هناك شعر موجَّه خصيصًا للأطفال فى عصور الشعر الأولى .. وغاب عن اهتمام المؤرخين .. أم أن المجتمع لم يكن بحاجة ماسة إلى هذا اللون لارتفاع مستوى الإدراك اللغوى .. والذوق الفنى معًا .

إن ترقيص الأطفال .. أو شعر اللعّب .. بهذا المستوى اللغوى والفنى قد يمثل زهوًا لدى الكبار أكثر مما يمثل لدى الصغار .. فقد كان الكبار - كما أسلفنا - يُنشئون الأراجيز تلقائيًّا لكى يصمت

الصغيرُ عن بكائه .. أو لكى يفخرُوا به .. ويعبروا عن حبهم له .. لكن الصغير أمام هذه الترقيصات لم يكن من الإدراك بحيث يرددها أو حتى يفهم معناها .. لكن كل ما كان يعنيه هو أن يستجيب - نفسيًّا ووجدانيًّا - إلى صوت أبيه أو أمه .

ولهذا فإن العمر الذى كان الصغير يتلقى فيه هذه الأهازيج ، كان صغيرًا جدًّا لا يتجاوز سنواته الأولى فى مرحلة التكوين .. وهى المرحلة التى ننظر إليها - عصريًّا - على أنها مرحلة ما قبل القراءة حيث تتكوّن حواس الطفل .. ويعنى فيها الطفل بالصُّور دون الكلمات .. وبالموسيقى دون المعانى التى تحملها كلمات الموسيقى ..

ومن ثم فنحن نميل إلى مناقشة الجانب الآخر الذى يقول بأن المجتمع العربى القديم لم يكن بحاجة ماسة إلى هذا اللون الخاص ( الذى قد يبدأ فى عصرنا مع مرحلة القراءة والكتابة بتلمُّس وحذر ) حيث كان العربى القديم يربى أبناءه منذ نعومة أظفارهم وإدراكهم .. على لغته وتجاربه . وعلى المستوى الفنى المتميز .

ويذكر تاريخ الشعر العربى أكثر من حادثة أو موقف .. نطق فيه الصغار بالشعر وكأنهم كبار ينشدون .. مما يدل على أن الفروق اللغوية التى نحسها اليوم لم تكن موجودة فى تلك العصور بهذه الحدة التى نشهدها ونعانيها .

ويذكر فى هذه الصدد ( تشارلز ليل ) فى مقدمته للمفضليات :

( أنه مما لا شك فيه أنه قد وجد بجزيرة العرب قديمًا كما يوجد اليوم فى كثير من أنحاء الجزيرة .. لهجات وفروق عظيمة ولكننا نرى فرق اللهجات فى لغة الشعر قليلًا - إلا فى أشعار طيئ - ومعنى ذلك أن لغة الشعر فى أنحاء الجزيرة صارت واحدة .. ومجموعة لغات الشعر الجاهلى .. وكثرة المترادفات المفرطة . إنما وجدت فى الشعر بامتصاص تدريجى .. وبذلك نشأت لغة شعرية واحدة هضمت لهجات القبائل الأخرى ) .

وينكر ( نيكلسون ) فى تاريخ الأدب العربى ، أن تكون لغة الشعر العربى صناعية مختلفة عن لغة الحديث العامة .. ويعتمد فى هذا الإنكار على أنها لغة ما نظمه الشعراء الجائلون والمسيحيون فى الحيرة .. والرعاة .. والصعاليك .. والبدو الأميون .. إلخ .

وينتهى ( نيكلسون ) إلى القول بأنه ( ليس ثمة شك فى أن ما نسمعه من شعر القرن السادس الميلادى هو اللغة التى يتحدث بها العرب فى أرجاء شبه الجزيرة العربية عرضًا وطولًا ! )

ويضعنا هذا أمام تأكيد آخر .. هو أن اللغة - واحدة - كان يفهمها ويدركها ويستمتع بها كلٌّ من الصغار والكبار .. لم يجد الصغار فيها صعوبة فهم .. ولم يتحرز الكبار فى إسماعها وتلقينها لأولادهم وهم فى دور الإدراك .

وهذا يفسر لنا ظاهرة عدم الفصل بين لونَىْ الأدب فى تلك العصور .. وانعدام ما يمكن أن يسمى - اصطلاحًا عصريًّا - بشعر

الأطفال ، المدركين للقراءة والكتابة .

قد يلتزم الشاعر مذهب الشعبية .. فيختار البحور السهلة الغنائية .. والمفردات العذبة البسيطة .. لكنه لا يقصد من هذا إلا أن يكون قريبًا من الناس .. وقد يلتزم الشاعر مذهبًا مغايرًا .. فيلجأ إلى الحوشية فى اللغة .. والغموض فى الصورة - دليلًا على قدرته وعظمته فى الإبداع - حتى أن بعض نقاد الأدب قد أغراهم كثيرٍ من الشعراء الملتزمين غموضَ وحوشيةَ اللغة ، فمالوا إليهم وصنفوهم فى طبقات .. ووضعوا فى آخرها هؤلاء الشعراء الذين التزموا السهولة واليسر .

وبالرغم من كل هذا لا يمكننا أن نطلق على الشعر السهل الميسر - شعر أطفال - ولا يمكننا كذلك أن نعزل الأطفال عن استيعاب اللون الآخر الذى يلتزم اللغة الصعبة .

ولا عجب فى هذا والطفل ينشأ فى بيئة واحدة تلتزم لغةً واحدة وتجارب متشابهة وتأملات لا تخرج عن العين والوجدان .

## أطفال يقولون الشعر :

هناك حديث شريف عن الرسول الكريم قد يقود خطانا إلى هذه الحقيقة يقول : « لاعبْ ولدَك سبعًا .. وأدِّبهُ سبعًا .. وراقبه سبعًا .. ثم اجعل حبله على غاربه .. »

وهذه السنوات السبع الأولى تمثل بلا شك مرحلة اللعب -

سواء أكان هذا اللعب بالمناغاة أم بالكلمات أم باللعب أم بالترقيص . !

أما المرحلة الثانية وهي تبدأ من سبع سنوات حيث تبدأ علاقة الصغير باللُّغة ، أي بالأدب - أيًّا كان هذا الأدب . دينيًا أم اجتماعيًّا - فهي مرحلة الاستيعاب اللغوى والإدراك العقلى .. والنضج النفسى .

ثم ها هو الأب يبدأ فى مراقبة ولده وقد بلغ الرابعة عشرة - ليتأكد أن ما استوعبه استطاع أن يفيده فى حياته .. ثم حينما يبلغ ( سن الرشد ) .. يتركه يعمل عمله فى الحياة .

وأعتقد أننا بهذا نصل إلى حقيقة لا يدانيها شك ، هى أن الطفل بعد السابعة يمكنه أن يتلقَّى الأدب والعلم - والشعر من بين ما يتلقاه - بل لعله يتفوق ويقول الشعر أيضًا :

وهناك شعراء كثيرون نطقوا الشعر فى مرحلة مبكرة .. واخترقوا بهذا حاجز العجز الذى قد تفرضه عليهم أعمارهم .

وهذه رواية يحكيها صاحب الأغانى عن ( كعب بن زهير ) .. وأكتفى بإيرادها كما هى : [1]

أخبرنى أحمد بن عبد العزيز الجوهرى - وحبيب بن نصر المهلّبى قالا :

---

( ١ ) انظر أخبار كعب بن زهير - الأغانى جـ ١٨- دار الشعب ص ٦٣٥٩ .

حدثنا عمر بن شبَّه قال : حدثنا على بن الصبّاح عن هشام عن إسحاق بن الحصَّاص قال : قال زهير بيتًا ونصفًا ثم أكدى ( أى أفحم ولم يستطع القول ) فمر به النابغة .. فقال له : أبا أمامة ، أجِزْ .. فقال : وما قلت ؟ .. قال : قلت :

تزيد الأرض إمّا مِتّ خِفًا وتحيا إن حييت بها ثقيلا

فزُلت ليستقرَّ العَرضُ منها

أجزْ .. قال : فأكدى والله النابغة ! .

وأقبل كعبُ بن زهير – وإنه لغلام – فقال أبوه : أجز يابنى .. فقال : وما أجيزه ؟ فأنشده .. فأجاز نصف البيت فقال :

وتمنع جانبيها أن يزولا .. !

فضمّه زهيرٌ إليه .. وقال : أشهد أنك ابنى ..

وقال ابن الأعرابى : قال حماد الراوية :

تحرَّك كعبُ بن زهير وهو يتكلم بالشعر .. فكان زهير ينهاه مخافة أن يكون لم يستحكم شعره .. فيروى له مالاخير فيه .. فكان يضربه فى ذلك .. فكلما ضربه يزيد فيه .. فغلبه .. فدعاه فضربه ضربًا شديدًا .. ثم أطلقه وسرحه فى بهمه وهو ( غُلَيِّم ) صغير .. فانطلق فرعى .. ثم راح عشيَّةً وهو يرتجز :

كأنما أحـدُو ببهمِى عِيرًا من القُوى موُقرةً شَعِيرًا

– فخرج زهير وهو غضبان .. فحين برز إلى الحى قال :

وإنى لتعدينى على الهمِّ جسرةٌ تخبُّ بوصَّال صرومٍ وتعنقُ

ثم ضرب ( ولده ) كعبًا وقال له : أجز ياأُلَكَع .. فقال كعب :

كبنيانة القرئى موضع رحلها وآثار نسعيْها من الدفء أبلقُ

فقال زهير :

على لاحب مثل المجرَّةِ خلتَه إذاماعلاَنشزًامن الأرضِ مُهرقُ

أجز يالكع .. فقال كعب .

مثيرٌ هداه ليلُه كنهارِه جميعٌ إذا يعلُو الحَزونة أفرقُ

ويظل زهير يقول ويطلب من ولده الصغير أنِ يكمل .. حتى انتهيا .. فأخذ زهير بيد كعب ثم قال له : قد أذنتُ لك فى الشعر يابنى .. فلما نزل كعب وانتهى إلى أهله .. وهو صغير يومئذ.. قال أول قصيدة له :

أبيتُ فلاأهْجُو الصديقَ ومن يبعْ بعرضِ أبيه فى المعاشِر يُنفق

– ومن الروايات الأخرى كذلك ما أورده الأغانى فى أخبار لبيد ابن ربيعة[1]

فقد هجا لبيد بن ربيعة – وهو غلامٌ لا يزال – أخوالَه من بنى عبس تعصبًا لأعمامه بنى عامر ، فى حضرة النعمان بن المنذر ملك الحيرة .. وكان الشاعر إذا أراد الهجاء .. دهن أَحَدَ شِقَّىْ رأسِه وأرخى إزاره .. فأنشد فى ذلك قوله :

أكل يوم هامتى مفزَّعة يارب هيْجا هى خيرٌ من دِعَةْ

---

(١) انظر الأغانى جـ ١٦ دار الشعب ص : ٥٧١٨ .

نحن بنى أمِّ البنين الأربعةْ سيوفُ حَزٍّ وجِفانٍ مُتْرَعَةْ
نحنُ خيارُ عامرِ بنِ صَعْصَعَة الضاربون الهامَ تحتَ الخَيضَعةْ
والمطعمون الجفنة المَدعدعة مهلًا أبيتَ اللعنَ لا تأكلْ معهْ

فرفع النعمان يده من الطعام بعد أن أكمل لبيد الصغير قصيدته .. ومنع النعمانُ زيادًا العبسىَ عن مجالسته ومؤاكلته .. وكان من خاصة حاشيته .

وقد أراد زياد تكذيب الصبى والاعتذار عن نفسه .. فلم يقبل منه النعمان .. وقال له :

قد قيلَ ما قيلَ إنْ صِدْقًا وإن كَـذِبًا
فـما اعتـذارُك من قـولٍ إذا قيـلَا ..

– أما طَرَفةُ بن العبد فقد روى ديوانه أنه خرجَ مع عمِّه فى سفرٍ وهو ابنُ سبعٍ سنين فنزلوا على ماء .. فذهب طرفة بفخٍ له إلى مكان اسمه ( مَعْمَر ) فنصبه للقنابر .. وبقى عامة يومه لم يصِدْ شيئا .. ثم حمل فخه وعاد إلى عمه .. فحملوا ورحلوا من ذلك المكان فرأى القنابر يلقُطْن مانُثر لهنَّ من الحبَ فقال :

يـالـكِ من قُبـرةٍ بمَعْمـرِ خلا لك الجوُّ فبيضِى واصْفِرِى
قد رُفِعَ الفخُّ فماذا تحْذَرِى ونقِّرى ماشئتِ أن تنقِرِى
قد ذهب الصيادُ عنكِ فأبشِرِى لابد يومًا أن تصُادِى فاصبرِى

وقد أورد الرواية نفسها الدميرى فى كتابة ( حياة الحيوان الكبرى ) – فى مادة ( القبرة ) .

لقد قصدنا من إيراد هذه الروايات الثلاث أن تكون أمثلةً وبراهين على أن الصبيان كانوا يقولون الشعر .. وهم بهذا لم يكونوا فى حاجة بأن يُقدم لهم شعر ساذج ، أو أقل مما كان يُقدم للكبار .. حتى لو اعتبرنا هؤلاء من النجباء الشواذ .

ولاشك أن هذه ميزة تُحسب إلى جانب الثقافة العربية القديمة .. وأسلوب التربية الذى أنشأ أدباء وشعراء ومفكرين ، أضافوا الكثير إلى حضارات العالم .

**التربية والتعليم عند العرب والمسلمين :**

أثبتنا آنفا .. أن العرب الجاهليين كانوا أميين .. لكنهم كانوا يعتمدون على الرواية الشفهية فى حفظ الأشعار والأقوال .. حتى جاء الإسلام .. ولم يكن فى جزيرة العرب إلا عدد قليل من الرجال والإناث يعرف الكتابة والقراءة .

واعتمد العربى فى العصر الجاهلى – فى تربية أبنائه – على التجربة المباشرة مع الواقع .. إنه يحرِّض ولده على قول الشعر .. ويحرضه على تعلم الفروسية .. ويغرس فيه البطولة والثأر والقيم والجود والكرم .. ويقوم بواجب الرعى والسِّقاية .. لهذا نظروا إلى الصغير على أنه رجل – صغير السن ! .

ويبدأ الإسلام – بلسان عربى مبين – يعلِّم أبناء العرب .. فى أشكال دامت سنوات طويلة حتى اليوم .. وكُتبت رسائل شتى

تتحدث عن التعليم فى الإسلام والمعلمين .. أشهرها رسالة أبى الحسن القابِسى - القرن الرابع الهجرى - سماها : أحوال المعلمين والمتعلمين[1] .

وما يهمنا فى هذه الرسالة أن صاحبها نادى بأمرين سبق فيهما علماء التربية فى الغرب الحديث وهما : أن التعليم حق لكل صبى ، وواجب على الدولة أن تنفق عليه من بيت مال المسلمين - إذا لم يكن أهله قادرين على الإنفاق - ودفع أجر معلم الكتاب ..

أما الأمر الثانى فهو تعليم البنات .. لأن الدين الإسلامى عام لجميع الناس ..

كما ظهر فى عالم التأليف التربوى علماء آخرون مثل : ابن مَسْكويه ( المتوفى عام ٤٢١ هـ ) والغزالى ( م - ٥٠٥ هـ ) - وابن خلدون ( م - ٨٠٨ هـ ) - والزرنوجى ( م - ٥٧١ ) - ومحمد بن سحنون ( م - ٢٥٦ هـ ) وغيرهم كثيرون ..

وهناك أرجوزة تعرف بأرجوزة ( الطب ) كتبها ابن سينا .. وهى تبلغ ١٣٢٦ بيتا ... لكنها تضمنت جزءًا كبيرًا عن الأم والطفل ومنها هذه الأبيات :

والحىُّ ( يختلفون ) فى الأسنانِ كلامُنا منه على الإنسانِ

( ١ ) انظر : التربية فى الإسلام : د . أحمد فؤاد الأهوانى - وهى رسالة جامعية فى تحقيق هذه الرسالة - دار المعارف .

حرارةُ الشبانِ والأطفـالِ مِزاجُها مضطرب الأهوالِ
لكنـما الشبـانُ لليبُـوسَـهْ والطفل ذُو رطوبةٍ محسُوسهْ

ثم يسوق تلك النصائح فى تربية الأبناء فيقول :

الزمهُ إن أردتَ أن ينامَا مهدًا وطيئًا يُرِهِ الظَّلامـا
الزمه فى يقـظَتِه الضيـاءَ كيما يرى النجومَ والسَّماءَ
كَثِّرْ له الألـوانَ بالنهـارِ لكى تدربهُ على الإبصارِ
ناغِيهِ بالأصواتِ فى تعلمِ كيما تدرِّبـهُ على التكَلُّمِ
وامنعْه أن يقصِدَ أو أن يسألَا حتى تراه يفعةً قد اعتلَى

وبهذا يستقيم الفكر الإسلامى مع التربية الصحيحة .. ولا يختلف من زمانٍ إلى زمان ..

وتبدأ التربية والتعليم – فى الإسلام – من البيت عن طريق المحاكاة والتلقين – ثم ينطلق الصغير إلى – الكُتّاب – وهو أشبه بالمدرسة الأولية أو الابتدائية – والغرض منه تعليم القراءة والكتابة والقرآن .. وفهمُ الشعرِ .. والنحو والحساب .. ثم يلتحق بالمسجدِ فى تخصُّصَاتِ علوم الدين وغيرها ، ويصور ابن خلدون حالة التعليم فى الأمصار الإسلامية تصويرًا دقيقًا .. على هذا النحو ..

– أما أهل الأندلس فيتعلم الولْدان القرآن والكِتاب من حيث هو – أى جعلوه أصلًا فى التعليم – لكنهم يخلِطون فى التعليم روايةَ الشعر والترسل وقوانين العربية والخط ، إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة .

- أما أهل أفريقية فيلتزمون القرآن والحديث ..
- أما أهل المشرق فيخلطون فى تعليمهم كذلك ...

ويقول أبو بكر بن العربى فى هذا الصدد كذلك ( وهو يصف التعليم فى الأندلس ) ( فصار الصبى إذا عقل .. فإن سلكوا به أمثلَ طريقة لهم علَّموه كتابَ الله .. فإذا خدمهُ نقلُوه إلى الأدب ... ) إلخ .

ثم يقول فى تعليم المشرق :

( وللقوم فى التعليم سيرة بديعة .. وهى أن الصغير منهم إذا عقل بعثوه إلى المكتب فإذا عبر المكتب أخذوه بتعلم الخط والحساب والعربية .. ) إلخ .

أما تعلم الشعر فى الإسلام فكان موضع جدل بين الفقهاء .. وقد اعتمد مؤيدو تعليم الشعر على أحاديث الرسول الكريم ومنها : انما الشعر كلام فحسنه حسن وقبيحه قبيح ) ومنها كذلك ( إن من الشعر لحكمة )

ولاشك أن التدوين كان له جانبان على العرب : حسن وسيئ معًا .

فهو حسن لأنه حفِظ التراثَ من الضياع والإهمال .

وهو سيئ - فيما يظنه العرب القدامى - لأنه جعلهم يتكئون عليه فتقل قدراتهم عن التذكر فينشغلون بأمور أخرى .. على حساب الحافظة .. والسليقة .

لكن الأمر الذى ينبغى ألا يغيب عن بالنا هو أن الشعر - حتى فى الإسلام - كان ضمن مناهج التعليم .. وربما انحدر فى العصور المتأخرة عن مستواه الجيد .. مع الانحدار العام فى المستوى الثقافى العام .. ومع انشغال الدولة الإسلامية فى الحروب والمزايدات وضياع كثير من الشخصية العربية فى صراعات مع الثقافات الأخرى .. ولعل هذا يفسر إسراع المتخصصين اليوم لكى يكون الأدب أدبين لا أدبًا واحدًا .

# الأطفال والشعر المعاصر

سوف نتناول هنا أهم التجارب .. فنحاول أن نلم بخصائصها وتأثرها بالثقافات المعاصرة - كلما دعانا ذلك - ثم نفرد لشعر الحيوان جانبًا خاصًا باعتباره أشهر هذه التجارب على الإطلاق .. عائدين القهقرى إلى جذوره .. فى العربية وغير العربية .. وأعتقد أن القارئ - لا يختلف معى - بعد رحلتنا الطويلة السابقة - على أن عصرنا هذا - عصر التخصص الدقيق - قد انسحب أيضًا على عالم الأدب .. بل يظهر واضحًا فى الشعر خاصة .. حتى نجد هذا الأدب الذى يخصص للأطفال .. وذلك الأدب الذى يخصص للشباب .. وربما الأدب الذى يخصص لمراحل أخرى بعد الشباب .

ولن نستطرد طويلاً فى تشخيص هذه الصورة .. فهى ماثلة أمام أعيننا لا تحتاج إلى دليل مقنع .. خاصة ونحن نرى هذا ( الانشطار ) اللغوى الذى نعانى منهم كل يوم وكل ساعة - فلغة فصحى فى كتب الأدب المكتوب - ولغة وسطى فى الصحافة - ولغة ليس لهاملامح فى الوسائل المسموعة والمشاهدة .. ولغة ( سوقية )

فى الشارع .. ثم يحار أطفالنا بين تلك اللغات ( أو اللهجات ) كلها وهو يتراوح بين مدرسته وبيته وشارعه ..

ليس هنا مجال لبحث هذه القضية .. حتى لا ننصرف عن خطنا الذى بدأناه ومكثنا طويلاً نكتشف طرقه .. ومجاهيله إلى أن وصلنا - أو قفزنا - إلى الشعر المعاصر ..

والشعر المعاصر هنا يبدأ - مع الأطفال - من منتصف القرن الثامن عشر .. بعد أن تغيرت النظرة إلى الطفل على أيدى علماء التربية المعاصرين ..

وقد يكون بدأ فى مناطق أخرى من العالم منذ قرون ثلاثة - على يد شعراء أوربيين . نحاول الآن أن نمر بهم مرورًا سريعًا . بقصد التعرف عليهم .. وعلى إبداعهم .. وما إذا كان لهم تأثير فى إبداعنا أم لا .

## أدب الأطفال المعاصر :

يمكن القول إن قصص الأطفال هى اللون الوحيد الذى يتسم بالعالمية .. ذلك أنها يسهل نقلها من لغة لأخرى كما كتبها مؤلفها على حين يختلف الأمر بالنسبة للشعر .. الذى يصعب ترجمة الإحساس إذا نجح المترجم فى نقل المعنى ..

ولا شك أن الطرف الآخر من العالم قد سبق الشرق إلى التقاط الخيط وكتابة أدب الأطفال المعاصر ..

إن لافونتين ( ١٦٢٠ - ١٦٩٦ ) : وحكاياته - التى استمد أكثرها من كليلة ودمنة وإيسوب - ولقمان - يقف فى مقدمة من كتبوا الشعر للأطفال .

وجريم : الألمانى الفقيه اللغوى كتبت له حكاياته الشعبية شهرة لا تقل عن شهرة أبحاثه اللغوية .

وخوان رامون خمينث : الشاعر الأسبانى الذى حصل على جائزة نوبل عام ١٩٥٦ لم تصرفه أحداث عصره عن كتابة ملحمته الشعرية ( أنا وحمارى ) فكانت قمة من قمم الأدب الأسبانى على لسان حماره الفضى ( بلا تيرو ) وهو يطوف أسبانيا فيتأمل الوردة والفراشة والتل والشروق والغروب وكل المشاهد الأخرى .. بل أوجد تيارًا لشعر الصغار ارتاده شعراء أسبانيا فيما بعد .

وطاغور : شاعر الهند العظيم يخصص أكثر من ديوان للأطفال ، ينخلع فيه من دنيا الكبار ليعيش مع الأطفال فى حبهم وخيالهم ولعبهم - ويوشك أن يكون الطفل لديه رمزًا للحياة الخالدة ، بل نجده يطبق ذلك عمليًا ، حينما ينشئ طاغور عام ١٩٠١ مدرسته الصغيرة ببعض الصبية ليضع لهم نظامًا يوميًا دقيقًا من التربية العقلية والروحية .

وفى مجال الشعر كذلك كتب ولينم بليك - أغانى الأبرياء - ( ١٧٨٩ ) وكتب إدوارلير - الأغانى التوفيقية عام ١٨٤٦ - وفى ألمانيا يكتب هوفمان أغانى للأطفال عام ١٨٤٦ أيضًا .

أما لويس كارول فقد اشتهر بكتابه : أليس فى بلاد العجائب .. لكنه كتب أشعارًا للأطفال عام ١٨٦٥ .. إلا أنها لم تستطع أن تحظى بشهرة كتابه ( أليس فى بلاد العجائب ) ويكتب كبلنج كذلك كتاب الأدغال عام ١٨٩٤ .. وكان من عادته أن يستهل قصصه بالشعر .. وكذلك ساهم بدواوين شعرية خاصة للأطفال ..

أما الشاعر كارل ستاندبيرج فقد كتب أغانى مستمدة من الطبيعة تحت اسم (Fog) أى الضباب .. وهو يقصد تقلبات الطبيعة ومعطياتها المختلفة .

وحاول روبرت فروست فى أمريكا كتابة الشعر للأطفال .

حتى ت . س إليوت كتب عام ١٩٣٩ ( القطط العمياء ) لكنه لم يحز على أية شهرة ، ربما لأن شهرته كشاعر وناقد ومفكر ، طغت على ما عداها من أنشطة أدبية أخرى ، إلى جانب أن عقله الأكاديمى وثقافته الرفيعة وفلسفته العميقة لم تتح له المقدرة على مخاطبة الأطفال بالبساطة اللازمة .

وقد اهتم العالَم الأوربى والأمريكى ( بأغانى المهْد ) التى تعتمد أساسا على عنصرىْ الموسيقى وتكرار المفردات ( بمعنى أو بغير معنى ) بحيث تكرر بمناغاة وانتظام مما يجعل الطفل مستمتعًا بإيقاعاتها فحسب .

وكلما ترقى الطفل فى سنى عمره قُدِّم له شعرٌ مناسب .. يتضمن الخيال والفكاهة والفولكلور والأغنية التوفيقية .

ويذكّرنا هذا التصور بما كان عليه العرب مع أولادهم حينما قدّموا إليهم وهم في دور الطفولة - أهازيج الترقيص - حتى إذا شبّوا وأدركوا دخلوا فى عداد الكبار .

لكن يبدو أن الأمر هنا مختلف بعد هذه السن المبكرة ، حيث يتحسس المربّون الطريق إلى عقلية الطفل بحذر شديد .. فيقدمون إليه فى كل مرحلة من مراحله ما يتوافق مع إدراكه وفهمه[1] على حين كان القدماء أشجع وأقدر منا على الاقتراب من عقلية الطفل كما رأينا .

أما فى مصر المعاصرة فلا نستطيع أن نغفل كتّاب الأطفال الذين اقتربوا من ذهن الطفل ، كلٌ بما استطاع .. وهم كُثْر .. لا نستطيع أن نتجاهل أدوارهم .. ومنهم .. رفاعة رافع الطهطاوى صاحب كتاب ( المرشد الأمين للبنات والبنين ) وواضح من عنوان هذا الكتاب أنه جاء فى صورة إرشاد للتلاميذ فى مدارس وزارة المعارف .. يدل على ذلك ما جاء فى مقدمته ( خطبة الكتاب ) :

« صدر لى الأمر الشفاهى من ديوان المدارس .. بعمل كتاب فى الآداب والتربية يصلح لتعليم البنين والبنات على السويّة .. فشمرت عن ساعد الاجتهاد .. وعملت هذه المجموعة التى جاءت على وفق المراد .. لم تدع فى هذا لعين المتمنى مطمعاً ولا لقوس الاقتراح منزعًا زُفّت إليها أبكار المعالى .. إلخ » .

---

( ١ ) انظر ( مدخل عام إلى أدب الأطفال ) من هذه الدراسة .

ومن موضوعات هذا الكتاب : مقدمة فى بيان تربية الأطفال .. والعقيدة الدينية وفضائل الذكور على الإناث .. والتعلم والتعليم .. والمدارسة والمطالعة .. والعلاقة بين الفنون الأدبية والعلوم الأخرى .. والوطن .. والوطنية .

وواضح أن هذا الكتاب - وإن اعتبره الكثيرون علامة أولى على درب التعليم - إلا أنه لا يعتبر أدب أطفال بالمعنى العلمى .. خاصة فى ضوء المفهوم المعاصر .. الذى ينحّى النصائح والإرشادات المباشرة جانبًا .. وربما نُظر إليه على أنه عمل مفيد لتعديل سلوك الأطفال وإرشادهم . »

لكن ما كتبه محمد عثمان جلال .. وعبد الله فريج .. وأحمد شوقى .. ومحمد الهراوى .. وكامل الكيلانى وغيرهم .. فنحن نستطيع أن نضعه بارتياح شديد فى أدب الأطفال .. لأنها إضافات حقيقية فى هذا المجال ..

ولكى نقف على ما يهمنا فى هذا المجال - الشعر - فسوف نتناوله فى محورين كبيرين : شعر الحيوان - والشعر الذى يتناول مضامين مباشرة تتعلق بحياة الطفل وقيمه وسلوكه .

### شعر الحيوان :

سوف نصاحب - فى الشعر العربى المعاصر - أبرز صوتين كتبا شعر الأطفال على ألسنة الحيوان هما الشاعر محمد عثمان جلال

( ١٨٣٨ - ١٨٩٨ م ) - والشاعر أحمد شوقى ( ١٨٧٠ - ١٩٣٢ ) .. وسنحاول كذلك أن نتحدث عن ملامح التأثر والتأثير بالنسبة لكل منهما .. ثم نتناول صوتًا ثالثًا أقل تأثيرا فى هذا المجال .

والحق يقال إن الحكاية على لسان الحيوان - وأيضًا الشعر الذى يتحدث عن الحيوان - قديمة فى كل الآداب العالمية .. وهى عند العرب كذلك قديمة .

لقد عرف هذا اللون فى حضارة مصر القديمة .. إذ يعتبر المصريون من أسبق الشعوب إلى هذه الحكايات حيث يرجع تاريخ ( حكاية السبع والفار ) التى وجدت على أوراق البردى ، إلى ( القرن الثامن عشر قبل الميلاد ) على حين ترجع خرافات إيسوب فى اليونان إلى ( القرن السادس قبل الميلاد ) .. وبعض المؤرخين يرى أن الهند قد كتبت أيضًا حكايات الحيوان - فى حكايات تناسخ بوذا - !

بل نجد علاقة الإنسان بالحيوان - ومنه الطير كذلك - تبدأ منذ وطئ آدم الأرض .. فغراب قابيل علَّمه كيف يوارى سوءَة أخيه ، وإبراهيم عليه السلام قد اطمأن قلبه حينما نادى على الطير الميت فجاءت طائرةً إليه ، وكبش إسماعيل عليه السلام قد أنقذه من الموت المحقق ، وحوت يونس قد حفظه حينًا ثم أخرجه حيًّا ، وبقرة بنى إسرائيل كانت معجزة بين أيديهم ، وحمار العُزَيْر وكلب

أهل الكهف يؤكدان قدرة الخالق العظيم على إحياء الموتى ، وعنكبوت الغار يحفظ محمدًا عليه السلام من بأس أعدائه .

ولم يكن العرب بعيدين عن إطار هذه العلاقة .. فقد شاركهم الحيوان حِلّهم وترحَالهم .. وطِرادَهم وغزواتهم .. وليلهم ونهارهم .. فمنهم من أَنِس إلى الحيوان ومنهم من نفر منه ..

كما أن كثيرًا من مفكرى العرب وعلمائهم قد اهتموا بالحيوان .. فوضعوا له مؤلفات نادرة أشهرها كتب : للجاحظ .. والدميرى - والقزوينى - والسجستانى - والأصمعى .. وغيرهم ..

أما الشعراء .. فقد جعلوا الحيوان مادة من مواد تجاربهم يستقون منها كثيرًا من الموضوعات أو المعانى التى تُثْرى القصائد .. وتؤكد معرفتهم بالحيوان وسلوكه .

ويضيق بنا المقام لو حاولنا الإحاطة بما قاله الشعراء فى الحيوان .. ونكتفى فقط بإيراد بعض الأمثلة التى تؤكد هذه النظرة . فقد امتلأت كتب الأدب بمثل هذه الأشعار التى لا تقع تحت حصر .

ومن ذلك مثلاً ما قاله حُمَيْد بن ثورْ الهلالى فى وصف الذئب :

وَنِمتَ كنومِ الذئبِ فى ذى حفيظةٍ ... أكلْتَ طعامًا دونه وهو جائعُ

ينامُ بإحدى مُقلتيْهِ .. ويتقِى ... بأُخرى الأعادى فهو يقظان هاجعُ

أما الديك فقد أجاد أبو بكر الصُّنوبرى فى وصفه ومدحه حين قال :

مغـــردُ الليـلِ مـــا يـألُـوك تغـــريـــدا
ملَّ الكَرى فهو يدعـو الصبحَ مجهـودا
لمـــا تـطرَّب هـــزَّ العـطْف من طـــربٍ
ومـــدَّ لـلصـــوتِ لمـــا مـدَّه الجـيـــدَا
كـــلابسٍ مُـــطرفًـــا مُـــرخٍ ذوائـــبـــه
تضـاحـكُ البيضُ من أطـرافـهِ السُّـودا
حـــالى المـقلّد لـــو قـيسـتْ قـــلائـــدهُ
بـالـورد قصَّـــر عنهـا الـــوردُ تـوريـــدَا

أما أبو نُواس .. فله قصائد كثيرة يصف فيها الثعلبَ وكلب الصيد .. والديك والفهد والصقر وغيرها .. وأحيانا يكتب رثاء فيها حينما يألفُها ويفقدُها بالموت ..

فهذه أبيات من قصيدة له يرثى بها كلبًا لسعته حيةٌ فمات .. يقول فيها ..

يـــا بـؤس كـلبـــى سيـــدُ الـــكـــلابِ
قـــد كـــان أغـنـــانى عـن الـــعـقـــابِ
وكـــان قـــد أجـــزى عـن الـقـصّـــابِ
وعـــن شـــراءِ الجـــلَب الجـلّاب
يـــا عـينُ جـــودى لى عـــلى حـــلّاب
مَـــنْ لـلظبـــاء الـــعُـفْـــر والـــذّئـــابِ

ثم ينتقل إلى وصف ما حدث له من الحَيّة إلى أَن يصلَ إلى هذه الأبيات :

فعلِقتْ عرقُوبَه بنابِ ... لم تَرْعَ لى حقًّا .. ولم تُحَابِ
فخرَّ وانصاعت بلا ارتيابِ ... كأنما تنفُخُ من جِرابِ
لا أبتُ إن أبتِ بلا عقابِ ... حتى تذوقى أوجعَ العذابِ

ويصف شاعر آخر الطاووس بقوله :

سبحان مَنْ مِنْ خلْقِه الطاووسُ ... طيرٌ على أشكالِه رئيسُ
كأنّه فى نقشِه .. عروُس ... فى الريش منه رُكبتْ فلوسُ
تشرقُ فى داراتِهِ شموسُ ... فى الرأس منه شجرٌ مغروسُ
كأنه بنفسَجٌ .. يميسُ ... أو هو زهرُ حرمٍ يبيسُ

بل أخذ بعض الشعراء مادة الحيوان للإلغاز والفكاهة .. كقول أحد الشعراء ملغزًا عن الفيل :

ما اسم شئٍ تركيبهُ من ثلاثٍ ... وهو ذو أربع تعالى الإلهُ
قيل تصحيفه .. ولكن إذا ما ... عكسُوه يصيرُ لى ثلثاهُ

وهذا أبو إسحاق الصابى قد ألِفَ الببَّغاء .. وتعرَّفَ على ما تفعله من محاكاة وإمتاع لصاحبها ، وهى بين سجن قفصها الحديدى . فكتب فيها يقول :

ألفتُهـا صبيحـةً مليحـةْ ناطقةً باللغة الفصيحةْ
عُدَّت من الأطيارِ واللّسَانُ يوهمُنى بأنها إنسانُ
تُنهى إلى صاحِبها الأخبارَا وتكشف الأسرار والأستارَا
بكماءُ إلاّ أنها سمِيعةْ تُعيد ما تسمعُه - طبيعةْ -
زارتْك من بلادِها البعيدةْ واستوطنت عندكَ كالقَعيدةْ
ضيفٌ قِراه الجَوْزُ والأرُزُّ والضيفُ فى إتيانه يُعَزُّ
تراه فى منقارِه الخَلُوقِى كلؤلؤ يلقُطُ بالعقِيقِ
تنظرُ من عينينِ كالفصَّيْن فى النورِ والظلمةِ بصَّاصين
تميسُ فى حُلتهـا الخضراءْ مثل الفتاةِ الغادةِ العذراءَ
خريدةٌ خدورُها الأقفاصُ ليس لها من حَبْسِها خلاصُ
تحبسُها ومالها من ذنْبِ وإنما ذاك لفرطِ الحبِ

والذى نلاحظه على هذه الأشعار ، أنها لا تقل جودة ولا فنية عن ألوان وأغراض الشعر الأخرى التى يكتبها الشعراء .. وأن الصغار والكبار كانوا يستمتعون بها .. فلم تكتب خِصّيصًا للصغار .. لكنها كتبت بمفهوم عصورهم . على حين من الممكن أن يعاد تقديمها

اليوم فى ثوب جديد[1]

فإذا ما انتقلنا إلى عصر ابن المقفع ( ٧٢٤ - ٧٥٩ م ) .. فنحن أمام نقلة أخرى فى أدب الحيوان أحدثها ترجمة كتاب ( كليلة ودمنة ) إلى العربية .

إن نظرة فاحصة خلال ما كتبه الشعراء والأدباء عن الحيوان فى الأدب العربى قبل نقل ( كليلة ودمنة ) تبين لنا ظاهرة مهمة هى أن الشعراء قد جعلوا الحيوان مادة ( وصفيّة ) فى أشعارهم أو ركناً من أركان التشبيه والتصوير والتمثيل .. ومثل هذا كان تيارًا قويًّا تزعمه كثيرون من الشعراء الوصافين مثل ذى الرمة والبحترى وغيرهما .. ولم نعثر على حكايات يرويها الحيوان وتؤخذ منها الحكمة أو الرمز أو العبرة أو القيم إلا نادرًا .

لكن الأمر قد تحوّل ، أو لنقلْ ، أضيف إلى فن وصف الحيوان والحديث عنه فن آخر هو فن ( الحكاية على ألسنة الحيوان ) .. ويعترف كثير من مؤرخى الأدب بأن القِصص على لسان الحيوان قد اتخذت لها رافدًا فى أرض الأدب العربى منذ نُقلت ( كليلة ودمنة ) .. وما سبق من محاولات فى هذا الصدد كانت عفوية أساسها شرح بعض الأمثال العربية ، أو أنها مقتبسة من كتب العهد القديم وغير ذلك .. وهى قليلة نادرة لا تمثل ظاهرة ..

---

( ١ ) لقد بدأ المؤلف فعلا تجربة إعادة تقديم نماذج من أشعار القدماء التراثية فى أغراض مختلفة للأطفال تحت عنوان ( ديوان الطفل العربى )

وحينما قام ابن المقفع بنقله نثرًا إلى العربية .. ترجم مرة أخرى على يد ( عبد الله بن الأهوازى ) بتكليف من ( جعفر البرمكى ) .. كما نظمه شعرًا - وهذا له أهميته الخاصة - ( أبان اللاحقى ) .. وحاكاه فى ذلك شعراء كثيرون مثل ( سهل بن نوبخت ) .. وغيره .

وفُتح الباب لمحاكاة ( كليلة ودمنة ) على مر العصور .. ومن ذلك أن سهل بن هارون ألف كتابه ( ثعلة وعفراء ) على غراره .. وحاكاه كذلك داود سهل بن هارون فى كتاب ( النمر والثعلب ) - كما نسج ( إخوان الصّفا ) رسائلهم على منوال ( كليلة ودمنة ) - وقد نقلوا هذا الجنس الأدبى من الميدان الاجتماعى والسياسى إلى الميدان الفلسفى فألفّوا محاكمة طويلة بين الإنسان والحيوان أمام ملك الجان ..[1]

ثم جاء أبو العلاء المعرى عام ( ٤٤٩ هـ ) فى كتابيه : ( رسالة الصادح والباغم ) ، و ( كشف الظنون ) ليشير إلى أنه وضع عدة مؤلفات على لسان الحيوان منها ( القائف ) و ( خطب الخيل ) . و (أدب العصفورين ) - إلى جانب ( الصادح والباغم ) .

وقد سبق كُتابُ الغرب إلى الاستفادة من هذه الآثار العربية -

---

( ١ ) يستطيع القارئ الرجوع إلى كتاب ( الحكاية على لسان الحيوان فى شعر شوقى ) د . سعد ظلام - مطابع دار التراث العربى فقد ألمّ المؤلف بكثير من القضايا التى تتعلق بموضوع شعر الحيوان .. وقد رجعنا إليه كثيرًا فى هذا المجال .

وغير العربية - وكتبوا على منوالها حكايات على أفواه الحيوانات ، أحدثت أثرًا طيبًا فى عالم الأدب .

وأول من فعل ذلك عن قدرة فائقة - لافونتين الفرنسى - وهو يقرّر ويعترف أنه استقى حكاياته من مصدرين كبيرين هما : كليلة ودمنة - وخرافات إيسوب .

محمد عثمان جلال :

لم يتنبه أحد من العرب إلى هذا الفن قبل منتصف القرن التاسع عشر حين كتب محمد عثمان جلال كتابه ( العيونُ اليواقظ فى الأمثال والمواعظِ ) الذى يشتمل على مائتىْ قصةٍ شعرية .

وكان عثمان جلال يجيد الفرنسية ، حتى أن مؤلفاته فى جملتها ترجمة عن هذه اللغة وهى تناهز عشرة مؤلفات بين مسرح ورواية وأقصوصة وأرجوزة .. إلى جانب نظمه ديوانًا من الشعر والزجل والفكاهات .. وجاء فى مقدمة كتابه :

« أخذت أترجم فى الأوقات الخالية كتاب العلّامة الفرنسى الكبير ( لافونتين ) - وهو من أعظم كتب الآداب الفرنسية المنظومة على لسان الحيوان .. علي نسق كتب : الصادح والباغم - وفاكهة الخلفاء .. وسميتها (العيونُ اليواقظ فى الأمثال والمواعظ ) وتعاقدت مع رجل فرنسى يدير مطبعة من الحجر .. ولكنه أخلف وعده لى .. فجهزت مطبعة أخرى .. وأنفقت عليها كل

ما عندى .. فلما تم طبعها .. عرضتها على العزيز عباس باشا الأول .. وكان واسطتى إليه المغفور له .. مصطفى فاضل .. فرمى كتابى فى وجه حامله . فعاد بِخُفَّىْ حُنين .. فبعتُ حِمارى .. وبقية ما أملك .. وقد ركبنى الهم والغم .. إلخ .. »

وقد طبع هذا الديوان للمرة الأولى (ما بين عامى ١٨٤٨ - ١٨٥٤ ) - وهذا له أهمية تاريخية غير مسبوقة فى العصر الحديث - ثم طبع مرة أخرى بعد وفاته بعشر سنين عام ١٩٠٨ وأيضًا قررته نظارة المعارف العمومية بمدارسها الابتدائية عام ١٨٩٤[١]

وباستعراض ما تناوله عثمان جلال نظمًا .. نجده تأثر بمصادر خمسة هى :

١ -أعمال لافونتين الفرنسية - وهى الأعمال التى تأثرت من قبل بكليلة ودمنة وإيسوب

٢ - حكايات إيسوب اليونانية .

٣ - كليلة ودمنة .. العربية .

٤ - التراث العربى المتناثر فى بطون أمهات الكتب العربية .. والحكايات الشعبية والتراثية المختلفة .

٥ - رسالة الصادح والباغم .. وفاكهة الخلفاء .. وقصائد أبى نواس ، وغيره ممن وصفوا الحيوان .

---

( ١ ) قام الشاعر عامر بحيرى بتحقيق الطبعة الثالثة من ( العيون اليواقظ ) وصدرت عن هيئة الكتاب عام ١٩٧٨ - وأيضًا : انظر الحكاية : د . سعد ظلام ص ٧٤٧ .

وواضح من أغراض الكتابة عن لسان الحيوان - قديمًا وحديثًا - أن الكاتب يتخذها قناعًا يقول من خلاله ما يشاء .. ويحميه من محاسبة الحاكم إذا هو أراد النصيحة والزجر فى إطار من الهزل والجد معًا .

وفى هذا حسن تصرف ولباقة وإقناع وتهذيب .. وبُعد عن المساءلة .. تحت ستار الرمز ..

وربما كان هذا هو الذى يدعو شعراء اليوم إلى الإيغال فى الرمز - لحد الغموض - لشعورهم بعدم حرية التعبير أو أن هناك سيفًا يهدد حياتهم وألسنتهم .. لكن الاستمرار فى هذا قد يُبعد المتلقى كثيرًا عن المغزى الذى يقصده الشاعر .. إذ أن الرمزية فى الأدب ينبغى أن تكون ضربًا مهمًّا من ضروب الفهم والإحساس والإمتاع جميعًا .

ويمكننا أن نقول بارتياح شديد إن عثمان جلال قد نقل - أو عرَّب - الحكايات عن لافونتين وألبسها ثوب الروح المصرية .. واللغة العربية القريبة من الاستعمال اليومى - وهذه قدرة لا تتوفر للكثيرين - وقد أجمع النقاد - ومنهم العقاد وغنيمى هلال - أن ترجمة الكتاب كانت حرة بحيث اختفت فيها معالم الروح الفرنسية .. وظهرت فيها الروح المصرية بوضوح شديد . وهذا فضل يضاف إلى فضل إدخال هذا اللون إلى العربية .

وقد سبقه فى ذلك ابن المقفع نفسه وهو ينقل عن الفارسية

( كليلة ودمنة ) فقد أضاف بعض الأبواب إلى أصل الترجمة .. حتى ظن الكثيرون أن ابن المقفع هو واضع الكتاب .. مستوحيًا أبوابه من مصادر أجنبية .

ومن الحكايات التى أضافها عثمان جلال كذلك إلى مؤلفه ، تلك التى تسمى (بنى الفلح ) فهى تعبير عن الحياة الريفية المصرية .. كما أنه جعل مسرح حكاياته كثيرًا من المناطق المعروفة فى مصر مثل ( بولاق ) أو المنطقة العربية كلها كالشام ومصر والحجاز .

ولا شك أن القارئ فى شوق لقراءة بعض النصوص التى كتبها عثمان جلال .. ولنبدأ معه بهذه القصيدة :

« صاحب الدجاجة »

كان البخيلُ عنده دَجاجهْ
تكفيه طولَ الدهر شرَّ الحاجهْ
فى كلّ يوم مرّ تُعطيه العَجَبْ
وهى تبيضُ بيضةً من الذّهبْ
فظنّ يومًا أن فيها كنزا
وأنه يزدادُ منه .. عِزًّا
فقبضَ الدجاجةَ المسكينُ
وكان فى يمينِه سِكّينُ
وشقَّها نصفينِ من غفلتِهِ
إذ هىَ كالدَّجاج فى حضرتِه

ولم يجدْ كنزًا ولا لَقِيَّهْ
بل رمّة فى حُجرةٍ مرميهْ
فقال : لا شك بأن الطّمعَا
ضيّع للإنسان ما قد جَمَعَا

ونلاحظ هنا اختيار المفردة التى توشك - من سهولتها - أن تصبح عامية .. لولا أن المؤلف يقبض ناصية اللغة باقتدار شديد .

وهذا مثل آخر بعنوان : ( الغراب والنّسْر )

رأى الغرابُ النسرَ مر بالغنمْ
واختطف الصغير منها واغتنم
فأخذته غيرةُ التقليد
وجاء للأغنام من بعيدِ
وحام كالنّسر على الغنيمةْ
واختار كبشًا عُدّ للوليمةْ
وكان صوفُ الكبشِ فى التأسيس
ملبّدا كلحية القسّيسِ
فأنشبَ الغرابُ فيه باعَا
وهمّ للجوّ فما استطاعَا
وبقيت أظافرُه مغلولةْ
ولم يجد بُدًّا لأى حِيلة

فأقبل الراعي مع الأولادِ
وأمسك الغرابَ بالأيادِي
وقصَّها عليَّ .. قلتُ : سيدي
ما أضيع البرهانَ في المقلِّدِ

ويحكي عثمان جلال كذلك قصة - الأرنب والضفادع - هكذا :

رأيت أرنبًا ذليلاً خائفَا
أوى إلى بيت هناك واختفي
ودام في شُغل من الأفكارِ
في حندس الليل .. وفي النهارِ
حتى عفا .. من همّه وغمّهْ
ومن أبيه يشتكي .. وأمّهْ
ولي يقول .. ليت لم تجدْني
وليت أُمّي قطّ لم تلدْنِي
وكيف لا وعيشُهُ منغصُ
وكلّ يوم تعتريه الغصصُ
إذْ هَبّ ريحٌ بفروع الشجر
يزحف منه خائفًا ويجري
ينام لكن عينُهُ يقظانه
وروحُه من فزع ملآنة

فجاءه محدّثٌ ذو عقل
وقال : ذا خوفٌ بغير أصل
ما هذه الحالُ .. فقال : خوفُ
والناس . مثلى واحدٌ وألفُ

إلى نهاية القصيدة التى تدعو إلى الشجاعة وتمقت الجبن والخوف .

من الصعوبة بالطبع أن نقف على كل نماذج الكتاب دون أن يكون بين أيدى القارئ .. لكننا حاولنا هنا أن نختار ثلاث نماذج مختلفة ، يجمعها حس الشاعر ولغته المبسطة التى لا نكاد نحس إزاءها صعوبة إلا فى القليل النادر .

وربما يفسر لنا ذلك كيف أصبح الطفل المعاصر مدللاً - بعكس أطفال العصور العربية الأولى كما سبق أن أشرنا - وعلى الكاتبين أن يصلوا إليه بأدب - مغلّف - بالبساطة والعذوبة ، والمباشرة أحيانًا .. والحيلة أحيانًا أخرى .. فجاءت نماذج عثمان جلال ومَنْ بعده نثرًا وشعرًا - نماذج القصص والأشعار - يتلمس الكاتبون فيها السبيل بحذر شديد إلى عقلية الطفل الذى أصبح - وهذه حقيقة مرة - يعاف اللغة والتراث والمعاناة .. ويفضّل السهل الذى لا يدمى أقدامه ولو بقليل من الإحساس ببشريته .

وهذه الصورة قد تضع الكاتبين فى مآزق شتى..منها المباشرة

والتقريرية .. وفقدان الإحساس بالجمال – لغة وصورًا ومعنى – فيضحّون بكل هذا خشية أن يهرُب منهم الصغير إلى وسائل أخرى تقدم له ما يريد بدون معاناة. !

لهذا يمكن أن نلتمس العذر لمثل هذه المحاولات الأولى .. التى يريد بها صاحبها أن تتسلل إلى وجدان الصغير بأى ثمن .. فجاءت مباشرة .. فيها بعض التكّلف على حساب اللغة أو المعنى أو الشعر نفسه – كفن – وتقترب من النثر – أو النثرية – لكن المهم فى الموضوع أنها كانت باكورة المحاولات فى هذا الصدد كتبت فى منتصف القرن التاسع عشر .. فكانت أسبق خطوة إلى وجدان الطفل .

أحمد شوقى :

قدم أحمد شوقى للأطفال بابين فى ديوانه هما : باب الحكايات – وديوان الأطفال – وقد كتب شوقى هذه الحكايات ما بين عامى ( ١٨٩٢ – ١٨٩٣ ) لكنها نشرت فى طبعة ديوانه الأول التى صدرت عام ١٨٩٨ م

ومن ثم – وإحقاقاً للحق – فإن محمد عثمان جلال قد سبق شوقيًا فى كتابة هذا اللون .. فالثابت أن عثمان جلال قد نشر الطبعة الأولى من ( العيون اليواقظ ) ما بين عامى ١٨٤٨ و ١٨٥٤ – أى قبل مولد أحمد شوقى نفسه بنحو خمس عشرة سنة

( ميلاد شوقى ١٦ أكتوبر عام ١٨٧٠ ) .

ولابد أن شوقيًا قد تأثر بالطبعة الأولى من ( العيون اليواقظ ) التى صدرت قبل ميلاده ، إذ أن الطبعة الثانية منه صدرت بعد وفاة عثمان جلال نفسه بعشر سنوات ( ١٩٠٨ ) - وبعد صدور أول طبعة من ديوان شوقى أيضًا بعشر سنوات .. وهذه حقيقة تاريخية يهملها الكثيرون .. حتى « شوقى » نفسه لم يذكر فى مقدمته لديوانه فى طبعته الأولى أنه تأثر ، أو حتى قرأ عثمان جلال ، وإذا سلمنا بأنه لم يقرأه فهذا أيضا مما نعيب به على أحمد شوقى .. إنه يقول فى مقدمته :

( وجرّبت خاطرى فى نظم الحكايات على أسلوب (لافونتين ) الشهير .. وفى هذه المجموعة شىء من ذلك ، فكنت إذا فرغت من وضع ( أسطورتين ) أو ثلاث أجتمع بأحداث المصريين ، وأقرأ عليهم شيئًا منها فيفهمونه لأول وهلة .. ويأنسون إليه ويضحكون من أكثره .. وأنا أستبشر لذلك وأتمنى لو وفقنى الله لأجعل لأطفال المصريين ، مثلما جعل الشعراء للأطفال فى البلاد المتمدنة ، منظومات قريبة المتناول يأخذون الحكمة والأدب من خلالها على قدر عقولهم . )[1]

---

( ١ ) يذكر المؤرخون أن ما كتبه شوقى من شعر الحيوان قد نظمه فى أثناء وجوده فى فرنسا .. وكان يجمع الأطفال المضريين ويقرؤه عليهم ..

ثم يقول :

( وإنى كنت أتمنى ولا أزال ألوى فى الشعر على كل مطلب .. وأذهب من فضائه الواسع فى كل مذهب .. وهنا لا يسعنى إلا الثناء على صديقى - خليل مطران - صاحب المنن على الأدب والمؤلف بين أسلوب الإفرنج فى نظم الشعر وبين نهج العرب .. والمأمول أننا نتعاون على إيجاد شعر للأطفال والنساء .. وأن يساعدنا سائر الأدباء والشعراء على إدراك هذه الأمنية ) .

وينتهى شوقى من تعليقه أو تقديمه لشعره الذى كتبه للأطفال ذاكرًا بالثناء صديقه خليل مطران - صاحب المنن على الأدب والمؤلف بين أسلوب الإفرنج فى نظم الشعر وبين نهج العرب - هكذا .. دون أن يذكر كلمة عرفان أو اعتراف بتأثره بأعمال عثمان جلال وبالطبع لا نستطيع أن نسلّم بأن شوقيًا - من موقعه فى عصره - لم يتعرف على أعمال عثمان جلال - خاصة الشعرية - بصفته شاعر الأمة فيما بعد !.

وقد سار على سُنة شوقى من بعده كثير من النقاد المؤرخين .. فأهملوا من جاء قبله .. وعدّوه أول من كتب شعر الأطفال فى العربية وأنه كان وحيدًا فى الساحة[1] ..

---

( ١ ) انظر ( ملاحظة أولى ) فى صدر هذا الكتاب وانظر : الحكاية : د . سعد ظلام ص ٧٤٧ .

وأغلب الظن أن شوقيًّا بحكم شاعريته وقربه من السلطة - فى زمانه - كان يملك أن يُقنع الناس بما يودّ أن يقنعهم به .. فهو ( يجّرب خاطره فى نظم الحكايات ) - ويدعو شعراء آخرين أن يتبعوه فى مسيرته .. فيُنظَر إليه على حساب غيره الذى يعيش فى الظل !

لقد أردت أن أسوق هذه الحقيقة التاريخية فى سبق الكتابة الشعرية للأطفال .. دون أن أتخذ موقفًا مضادًّا من أمير شعر العربية .. فقد أضاف أيضًا الكثير إلى ساحة الشعر وكتب للأطفال شعراً ، قد يتفوق على ما كتب عثمان جلال ( نلاحظ فرق الزمن والتجربة بين الشاعرين وما يعكسه على عقلية الطفل .. )

لقد تأثر شوقى - ليس بلافونتين وحده - ولكن بكليلة ودمنة ، وحكايات التراث كذلك .. لكن النظرة الموضوعية إلى شعر شوقى للأطفال ، تبين لنا أن قصائده تلك ليست بنفس السلاسة والبساطة التى كتب بها عثمان جلال . فهى تتميز بسمات رمزية يصعب على الأطفال - أحيانًا - فهمها إلا بواسطة معلّم .. يضاف إلى أنها فى مجملها ذات ألفاظ لا يتسع لها قاموس الطفل اللغوى .. وكذا قاموسه الادراكى .. وربما يعود ذلك إلى أن شوقيًّا كان يكتب للأطفال من موقعه كشاعر كبير أوحد .. إلى جانب وجود تلك المادة الجاهزة التى لا تتطلب غير الترجمة الشعرية إلى العربية ، ومع هذا فإن كثيرًا من هذه النماذج قد اختيرت لتقديمها للأطفال فى المدارس

المصرية .. إلى فترات طويلة .

ومع كل هذا فقد قدم شوقى إضافة ملموسة فى هذا المجال .. فمن أشهر حكاياته الجميلة نختار هذه القصيدة :

( الثعلب والديك )

برز الثعلب يوما فى ثياب الواعظينا
فمشى فى الأرض يهدى ويسبُّ الماكرينا
ويقول الحمدُ لله إلٰهِ العالمينا
ياعباد الله توبُوا فهو كهفُ التائبينا
وازهدُوا فى الطير إنّ العيشَ عيشُ الزاهدينا
واطلبوا الديك يؤذنْ لصلاة الصبح فينا
فأتى الديكَ رسولٌ من إمام الناسكينا
عرض الأمر عليه وهو يرجُو أن يلينا
فأجابَ الديكُ : عُذْراً ياأضلّ المهتدينا
بلّغ الثعلب عنى عن جُدُودى الصالحينا
عن ذوى التيجان ممّن دخل البطن اللعينا
أنهم قالوا وخير القول .. قولُ العارفينا
مخطئٌ مَنْ ظنّ يومًا أن للثّعلب دينا

وفى قصيدة أخرى بعنوان : ( الدب فى السفينة ) يقول :

الدبُّ معروفٌ بسوء الظن
فاسمع حديثه العجيب عنى

لمـــا استـطال المكثُ فى السفينـــة
مـــلّ دوام الـعيـشـــة الـظنيـنـــة

ثم يسوق الحكاية وهى واحدة من حكايات الحيوان فى سفينة نوح .. ومنها كذلك حكاية ( الحمار فى السفينة ) ويقول فيها :

سقط الحمار من السفينة فى الدجى
فبكى الــرفــاق لفقــده وتــرحمــوا
حــتى إذا طلع الـنهــار أتــت بــه
نحــو السـفيـنـــة مــوجــة تتـقــدمُ
قــالت : خـذُوه كـــما أتــانى ســالمــا
لم أبــتــلعـــه .. لأنـــه لا يُهــضـــم

وهى من الحكايات الفكاهية التى أكثر منها شوقى فى هذا الديوان .

وهذا نموذج آخر بعنوان ( ولد الغراب ) نقتطف منه هذه الأبيات :

وممّهــدٌ فى الـوكــرِ مِن ولــدِ الـغــرابِ مُــزَقّــقِ
كــرويهــب مــتــقــلس مــتــأزّر .. مــتــنــطقِ
لبس الـرماد عـلى سـوا دِ جــنــاحــه والمـفــرق
كـالفحم غادر فى الـرّما د بــقــيـــة لم تُحــرَق
ثــلثــاه مــنــقــارٌ ورأ سٌ والأظــافــر مـــا بقى

إلى آخر الحكاية التى تحكى أمًّا فُتنت بولدها الصغير وتخيلته

كبيرًا ، فرمت به من الجو بدون حرص عليه .. فتمزق فوق الأرض .. وأقبلت الغربان عليه .

وبقدر ما نجد بعض الصعوبة فى الرمز واللغة .. إلا أن هناك نماذج كثيرة يتفوق فيها شوقى على نفسه .. مما يعد إضافة حقيقته إلى شعر الأطفال على ألسنة الحيوانات .

عبد الله فريج :

وهذا ناظم أصدر عام ١٨٩٣ كتابَ ( نظم الجمان فى أمثال لُقمان ) وهو يتضمن خمسين مثلًا وضعها المؤلف فى صورة أراجيز تحكى حكايةً عن الحيوان أو الإنسان أو النبات ثم ينهى الأرجوزة بالمثل الذى انحدر إلينا من أمثال لقمان ..

وقد جاء فى مقدمة هذا الكتاب :

( لما رأيت الديار المصرية قد رقَت فى الحضارة إلى درجة علية .. لا سيما فى زمن مولانا العباس .. الذى أينعتْ فيه المعارف كرياض الآس .. هذا وقد قرر المجتمع اللغوى فى بعض جلساته بعد النظر المدقق فى مباحثاته .. أن يكلِّف تلامذة المدارس الأميرية .. فى عهد الوزارة الرياضية – أى رياض باشا – بحفظ منتخبات من أشعار البلغاء .. ليكتسبوا بذلك ملكة الإنشاء .. وقد أخذتنى الغيرة الوطنية أن أخدم بلادى بخدمة رضية .. تعود على أبنائها بالفائدة .. وتأتى لهم بالمنافع الزائدة .. فاستعنت فى ذلك الواحد

الفتاح .. مصدر الحكمة وينبوع الصلاح - وعمدت إلى أمثال سيدنا لقمان .. الذى شهد له تعالى بالحكمة فى منزل القرآن .. وإلى ما جرى ذلك من الأمثال الرائعة ذات الأبيات راسخة القافية .. ثم جعلتها خدمة أدبية لتلاميذ المدارس الابتدائية .. إلخ )

ويتضح من هذه المقدمة أن الشاعر قد عمد إلى مصدر أساسى ، هو أمثال لقمان ، وإن كان استعان بأمثال قريبة أخرى لا تخرج عن روح أمثال لقمان .. ولهذا لم تقتصر أراجيزه على حكايات الحيوان فقط .. بل وجدناه ينوّع فى الموضوعات مثل : بستان وعوسج - الحداد وكلبه - امرأة ودجاجة .. حطاب والموت - زنجى - صبى كذوب .. شجرة بلوط والسنابل ..

أما أسلوب النظم فقد جاء متكلّفًا إلى حد كبير يدل على عدم شاعرية كافية - وإن كان للمؤلف هذا ديوان آخر من الشعر فى أغراض مختلفة .

وقد بدأ كتابه عن الأسد مع حيوانات كثيرة مثل الثور - والثعلب والجرذون - والذئب .. ثم الإنسان .. ثم الوحوش جميعًا .. وتنقل مع الحشرات والنبات والطيور والإنسان .. فى كثير من الحكايات التى تنتهى - كما قلنا - بإيراد المثل اللّقمانى. ومن ذلك :

قد خطف الذئب من الرعيان
فى يوم جوع أحدَ الخرفان

وبينما كان به يسيرُ
قابله ليثٌ له زئير
يقول مهلاً خاسرَ الإيمان
ألست تخشى هيبةَ الديّان
ومن يديه اغتصب الخروفا
يقول فيها بعدُ كنْ عفوفا
فقال ذاك الذئب وهو فى خجلْ
علىَّ تمَّ اليوم ما قال المَثل :
ما ظالمٌ عن خوفِ مولاه عمى
إلا ويبلى فى الورى بأظْلمِ

وهكذا نرى أنها ترجمة حرفية لأمثال لقمان التى وصلت بعضها إلينا - أو حرفت أو أضيفت إليها واختلطت مع غيرها - حتى أصبحت أمثالاً واردة مألوفة .

وهذه أرجوزة أخرى بعنوان ( امرأة ودجاجة ) يقول فيها :

قيل بأن امرأة محتاجة
كانت لها فى بيتها دجاجة
لها تبيض بيضة فى اليوم
من فضة سادت بها فى القوْم
فافتكرت من غَيها الغبيّة
أن تكُثر الطعام للشقيّة

لـعلهـا تـبـيضُ بـيـضـتـينَ
أعـنى بـذا فى اليـوم مـرتـين
وإذْ لهـا زوّدتِ الـغَـذاءَ
وأوسـعـت أحـشـاءهـا امـتـلاءَ
انـفجـرت حـوصـلةُ المسـكيـنـة
وأصـبـحـت مـولاتُهـا حـزيـنـهْ
وصحّت الأمثـال أنّ بـالـطمـعْ
يفـرّق الإنسـان كـلَّ مـا جمـع[1]

ويتناول ما اتفقت عليه الأمثال من أن الطبع يغلب التطبع .. لكن فى صورة عجيبة حقًا هى صورة ( الزنجى الأسود ) حيث يقول :

مـر حكيمٌ من ذوى الفضـائـلْ
يـوماً عـلى بعض من السـواحـلْ
وقـد رأى هنـاك عبـدًا أسـودَا
فـوقـف الحكـيمُ حـتى يـشـهـدَا
وإذ رآه فـاركـاً بـالـثـلـج
جسـمًا ومـا أدراك جسمُ الـزّنجى

---

( ١ ) وازن بين هذا التناول وبين قصيدة عثمان جلال (صاحب الدجاجة) ص ١٥٣

فى أمل بأنه يبيضُّ
والاسوداد عنه قد ينفضُّ
قال له الحكيم فى الكلام
أقصرْ عنَاك ياأخا الأوهام
إنّ اسودادَ الثلج يابن الخالْ
أقربُ من بياضك المحالْ
إذ قيل إن الطبع يبقى فى البدنْ
ولم يغيره سوى درجِ الكفَنْ

على كل لقد قصدنا من هذا ألا نغفل هذه التجربة على قلتها وتكلفها فى الكثير .. لكنها نجحت - بالرغم من كل ما يؤخذ عليها - فى نظم الأمثال .. أما إذا وضعت فى موازنة مع الأراجيز العربية الأخرى فى تراثنا التى تتناول الأمثال - مثل أرجوزة أبى العتاهية مثلاً ما نالت شيئا من السبق .. لغلبة المباشرة فيها والنثرية والتقريرية .. وربما كان هذا سبباً فى إغفاله تماما من الذكر بالرغم من أنه عاصر « عثمان جلال » و« أحمد شوقى » .

## أشعار أخرى للأطفال :

لقد تناولنا آنفا شعر الحيوان لدى أبرز علامتين معاصرتين هما محمد عثمان جلال وأحمد شوقى ، ولا شك أن غيرهما فيما بعد قد

استجاب لها .. وسار على نهجها لكن بقدر أقل ، أما الجانب الآخر من شعر الأطفال – وهو الشعر الذى يصاغ فى صورة أناشيد تتضمن الوجدان والوصف وحب الوطن وغيرها من الموضوعات التى تحيط بالطفل .. فقد كتب فيها كثيرون .. منهم كذلك عثمان جلال وشوقى .. وتيسيرًا للبحث أيضا سوف نتابع هذه الأشعار لدى أصحابها المشهورين المؤثرين ..

**محمد عثمان جلال :**

فى ( العيون اليواقظ ) قصائد عديدة من قبيل الأمثال المضروبة أو الحكم فى صورة حكايات أيضًا لكنها لا تتعلق بالحيوان .. وقد نظمها عثمان جلال بنفس الأسلوب الذى نظم به حكاياته على ألسنة الحيوان .. ووضعها فى ديوانه .. ومن هذه القصائد : ( المنجم ) ويقول فيها :

كان المنجمُ فى أضغاث أحلام
وكلما قد رمى جاءت بلا رامٍ
رأيتُه فى الخلا يمشى على مهلٍ
ورأيهُ ضلّ فى تركيبِ أرقامٍ
وكان يهجسُ بالأفكار فى ( زُحَلٍ )
ويدّعى أنه استولى على الشّامِ

وقال : لا يظهر ( المريـخُ ) فى سحَرٍ
مثــل السمـاكــينْ .. إلاً بعـد أيــامِ
وحكَّم الشمسَ فى عينيـه .. ثم بدَا
يقيس دائــرَهــا الأعــلى بــإحكــام
وقد مشى تحت خطِّ ( الجدْى ) يقسمُه
إلى فــروع وأنــواعٍ وأقـســامِ
وبـينــا أنـفُــه للجـوِّ .. مـرتـفــعٌ
والعقــلُ مستغـرقٌ فى بحــرِ أوهـامِ
إذ مــرّ بالبئـرِ واستلقى بهـا عَجِـلاً
ومــا تـأخّــر عنهــا بعضَ أقــدامِ
وقـال وهـو بهــا يهـوِى بنــاصيـةٍ :
أبصـرُت خلفى ومـا طـالعتُ قُـدامِى

وربما كان عثمان جلال دقيقًا حينما كتب على ديوانه ( العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ ) فديوانه هذا مملوء فعلا بالأمثال والمواعظ ، سواء قيلت على ألسنة الحيوانات أو سيقت فى صورة غير رمزية بطلها الإنسان نفسه ..

نقرأ مثلا : قصيدته ( سيئ البخت ) يقول فيها :
سمعتُ عن رجـلٍ أوْدى به الـزمنُ
ولم يجـدْ من له فى النـاسِ يـأتمِنُ

وصـــدّه الحظُّ حـتى صــار مفـتقــرًا
علـى الحجـارةِ فى الأسـواق يـرتكنُ
ما باع إلا وكان السوقُ فى رِخَصٍ
ولا اشترى قطُّ إلا إنْ غلا الثمنُ
سمعتُــهُ يشتكى يــومًــا فقلتُ لــه
تـأتى الـريـاحُ بمـا لا تشتهى السفنُ

ونجد فى الديوان كثيرًا من هذه الحكايات مثل الأرملة - الصياد الجبان - حكمة سقراط - آنية الفخار ، وآنية الحديد ( قصيدة حوارية بينهما ) - مزية العلم - البنت - الشمس والريح والسائح - الحكيمان - الراعى والبحر - البخيل والكنز - اللصان والحى... إلخ وهى كثيرة فى الديوان .

وكنت أود لو أن محقق الديوان فصل بين اللونين : شعر الحيوان - والشعر الذى يلتزم الأمثال والحكمة على لسان الإنسان .. لكان أفضل .

المهم أن « محمد عثمان جلال » أيضًا قد طرق موضوعات الحكمة والمثل - أى الأدب التهذيبى أو التعليمى الذى عشنا معه طويلًا فى بداية هذه الدراسة ووجدنا صداه فى الأدب المعاصر كما نرى .

أحمد شوقى :

كتب شوقى كذلك أشعارًا أخرى ليست على ألسنة الحيوان .. بعضها فى صورة أناشيد وبعضها قصائد طويلة .. أودع معظمها فى ( ديوان الأطفال ) - ومنها : الجدة - الوطن - الأم - الرفق بالحيوان - النيل - المدرسة - نشيد مصر - نشيد الكشافة .

وكما كان المصرى القديم يكتب للنيل كلماته الأولى على هذا النحو[1] :

حمداً للنيل ..
ينزل من السماء
ويسقى البرارى البعيدة عن الماء

كتب شوقى هذا النشيد :

النيلُ العذبُ هو الكوثرْ ... والجنةُ شاطئُه الأخضرْ
ريانُ الصفحة والمنظرْ ... ما أبهى الخلدَ .. وما أنضرْ
البحرُ الفيّاضُ .. القدْسُ ... الساقى الناسَ وماغرسُوا
وهو المِنوالُ لما لبِسُوا ... والمنعمُ بالقطْنِ الأنْور
جعل الإحسان له شرْعا ... لم يخْلُ الوادى من مرعَى
فترى زرعًا يتلو زرعًا ... وهنا يجنى .. وهنا يبذُرْ

---

( ١ ) انظر ص ٦٨ من هذه الدراسة .

جارٌ ويُرى ليس بجارِ لأنـاة فيـه ووقـارِ
يـنصبّ كـتـلٌ منهـارِ ويضـجُّ فتحسبُـه يـزأرّ
حبشى اللون كجيـرتـه من منبعـه وبحيـرتـه[1]
صنع الشطّين بسُمـرتِه لـونًا كـالمسْك وكـالعنبرْ

ويكتب شوقى عن الأم قصيدة أخرى فيقول :

لـولا التُّقى لقلتُ : لمْ يَخْلُقْ سـواك الـولـدا
إن شئتِ كان العيْر أو إن شئتِ كـان الأسدَا
وإن ترد غَيًّا .. غـوَى أو تبغِ رشُدا .. رشَـدا
والبيتُ أنت الصوتُ فيه وهـو للصـوت صـدَى
كـالببَّغـا فى قفَصٍ .. قـيـلَ لـه .. فـقـلـدا
وكـالقضيبِ اللّدْنِ قـد طاوعَ فى الشكلِ اليـداَ
يـأخـذُ مـا عـوَّدتـه والمـرءُ مـا تـعـوَّدا

ولا أود أن أعلق كثيرًا على هذه النماذج .. ومأخذى عليها فقط أنها تتضمن بعض العصوبات اللغوية .. إلا إذا سلمنا معاً أن من واجب الطفل أن يتعلم كيف يفتح المعجمَ ليعرف معنى المفردة .. أو يسأل معلمه أو أباه عن المعنى .. لكن هذا الأمر قد يصرف

(١) لاحظ المعنى نفسه فى الأغنية التى كتبها شوقى ( النيل نجاشى ) .

الطفل عن الاستمتاع بالنغم فى القصيدة ، إلى تتبع المعنى فى المعاجم ..

**محمد الهراوى ( ١٨٨٥ - ١٩٣٩ ) :**

يُعد ( محمد الهرَّاوى ) من أوائل الذين انصرفوا بجد وإخلاص إلى شعر الأطفال .. خاصة أنه كان قريبًا منهم ، فقد كان يعمل فى دار الكتب التابعة لوزارة المعارف .

عاش الهراوى عصر الاستعمار البريطانى الذى يعمل جاهدًا على تلوين الثقافة والتعليم بما يخدم أغراضه .. ومن ثم بدأ الهراوى فى مقاومة هذا الاتجاه عن طريق كتابة أشعار للأطفال مستمدة من دينهم وأدبهم العربى وتاريخهم العريق .. وحاضرهم المناضل .. مما جعل وزارة المعارف تقرر دواوينه على مدارسها المختلفة .

بدأ الهراوى تجربته على مستويات الأطفال المختلفة من الإدراك والاستيعاب .. محاولاً أن يكتب لكل مرحلة من العمر ما يناسبها من الأشعار – وهى محاولة يجهد الكاتبون اليوم أنفسهم فى الوقوف عليها وتقديم كتاباتهم فى ظلها .

كتب الهراوى سمير الأطفال للبنين ( ٣ أجزاء ) .

وسمير الأطفال للبنات ( ٣ أجزاء ) .

وأغانى الأطفال .. والسمير الصغير ..

وديوان الطفل الجديد – ملحق به رواية الذئب والغنم –

( تمثيلية غنائية بالشعر فى فصل واحد ) هكذا ! وديوانًا من الشعر الدينى بعنوان : أنباء الرسل .. مستمدا من القرآن والكتب المقدسة ، أصدر الهراوى هذه الأعمال الشعرية مزينة بالصور - صفحة للقصيدة - وصفحة مصورة توضيحية - ولهذا أقبل الأطفال على هذه الأعمال فى نهم شديد ..

ويبدأ الهراوى رحلته مع الطفل .. فيأخذ بيده ويعرّفه على العالم من حوله - ولأن وسائل الإعلام فى تلك الأيام كانت محدودة وغير متطورة ، فقد حاول الهراوى فى شعره الجمع بين التعليم والترفيه .

فقد نجد أنشودة بعنوان تحية اللقاء .. يقول فيها :

هـل تعلمـون تحـيَّتى ... عنـد الحضـور إليكمُ
أنـا إن رأيتُ جماعـة ... قلتُ : السلامُ عليكمُ

وهو هنا يحاول وضع الطفل على الطريق المستقيم والمبادئ السليمة لتحية الناس والتعامل معهم . وفى أنشودة تعليمية أخرى يدعو الصغير إلى الحب والألفة مع غيره .. ويؤكد فيها أن قلوب الصغار قلوب كبيرة عامرة بالحب والمودة ..

لا تـظنُّـونى صغيـرًا ... ليس قلبى بـالصغير
يسـعُ النـاس وِداداً ... من صغـير أو كبـير

ويود الشاعر أن يكون ايجابيًا خاصة وهو يخاطب تلاميذ

المدارس .. فيلجأ إلى توجيه أنشودة أخرى تعلم الطفل حروف الهجاء .. أو تقربه حبًّا إليها .. وهذا أسلوب قديم معروف فى التراث العربى حيث كان علماء اللغة ينظمون قواعدها وعلومها فى أشعار ليسهل حفظها وتفسيرها على عقلية المتعلمين .. بل تعدى ذلك إلى علوم أخرى غير العربية ..

يقول الهراوى :

أبى : امتحِنّى يا أبى | فى أحرف الهجاءِ
فإننى أعرفُها | من ألف لياءِ
وأنت فى أولها | من ألفٍ وباءِ

ثم ينتقل الهراوى إلى الطفل فى حياته اليومية .. وقد كان التعليم فى عصر الشاعر صعب المنال .. وكان الصغير يمكنه أن يجمع بين العلم والعمل .. ولهذا وجه الهراوى رسالته بأن العمل شرف وليس حطًّا من كرامة الإنسان .. فيقول :

أنا فى الصبح تلميذٌ | وبعد الظهر نجارُ
فلى قلمٌ وقِرطاسٌ | وإزميلٌ ومِنشارُ
وعِلمى إنْ يكُن شرفًا | فما فى صِنعتى عارُ
فللعلماءِ . . مرتبةٌ | وللصناع مِقدارُ

ولا يغفل الهراوى قدرات الطفل العقلية فى مراحل عمره ..

وهو فى كل ما يكتب يضع عينيه على أمرين مهمين : الإيقاع السهل .. والمعنى الذى تحمله اللغة البسيطة .. ومن ذلك ما يصف به الكلب( نلاحظ الإيقاع الذى يسهل معه الغناء واللعب ) .

كلبى كلبى صافى القلبِ
يجرى خلفى يمشى جنبى
راعٍ للأهلِ وللصَّحبِ
صعبٌ عند الأمرِ الصعبِ
يحمى الأغنام من الذئبِ
وله فى الصيدِ .. وفى الحربِ
وله فى الإسعاف الطِّبى
وقليل العيبِ أو الذنبِ
يُغنيه القولُ عن الضربِ
فلذا .. ولذا أهوى كلبِى

إنها ولاشك أغنيةٌ راقصة تصلح للإنشاد مع ممارسة لُعبة معينة .. أو توقيع الأقدام فوق الأرض ضابطة للنغم .

ومع هذا الموقف من الكلب وحب الصغير له فإنه كذلك قد يكون شريرًا ولهذا ساق الهراوى هذه الأبياتِ بعنوان ( حيلة ) :

رمى غلام بكُرة فاقتربت من شجرةْ
وكان مربوطًا بها كلب يخافُ ضَرَرَه

فدار حول جذعها والكلبُ يقفُو أثره
فقصَّر الحبل به وعاد يأخُذ الكُرة

وتبدو هنا قدرة الهوارى على شرح الموقف وتبسيطه وتكثيفه أيضاً فى كلمات قليلة دون تطويل أو إسهاب .. ولو شئنا كتابتها نثرًا .. ربما زادت على سطور هذه الأبيات .

أما فى حب الوطن فللهراوى الكثير منه :

مصر أمنا حقُّها وجبْ
تُرْب أرضها يُنْبتُ العجبْ
ماءُ نيلها سائلٌ ذهبْ
بين أمِّنا والعُلا سببْ

وأيضا يتحدث عن شعب مصر وعراقته وحضارته فيقول :

يا ابن مصر .. يا عريق النسبِ
قد دعا داعى العُلا فاستجبِ
واطْو فى الجدّ بساطَ اللَّعبِ
واطلب العزةَ تحت العلم
قد نزعنا للمعالى منزعا
وتسنَّمنا المكان الأرفعا
قلْ لشمس الأفق : أخْلى موضِعا
لبنِى النيلِ .. بناةِ الهرمِ

وإلى جانب هذا يتنقل الهراوى خلال المشاهدات التى يراها الطفل هنا وهناك ، فهو يتحدث عن الحيوان والطيور التى يتعامل معها الطفل .. ووسائل النقل المختلفة مثل السيارة والدراجة والطيارة والترام .. والآثار المصرية مثل الأهرام وأبى الهول ، والآثار الحديثة مثل دار الكتب بل يدخل مع الفتاة إلى المطبخ .. ويذهب معها إلى المدرسة .. إلى غير ذلك مما تتعدّد جوانبه ولقطاته فى إيقاعات سلسلة بسيطة ، وكلمات قريبة إلى الفهم[1] .

ومن ذلك مثلاً ما نظمه فى وصف الدراجة :

دراجــة مــن عجــلِ     تمشى بـدفع الأرجُـلِ
محـكـمـةُ الـرِّبــاط     مـنـفـوخـة المـطاطِ
فيهــا جهــازُ النــور     وجــرسُ المســير
تفــرُّ وهى جــاريــة     ولا تــفــرّ راســيــة
تــدُل أن الــبــركــة     تحــلُّ عنـد الحــركـة

وكتاب ( الطفل الجديد ) للهراوى .. طريف فى أناشيده ومقطوعاته .. إنه يصحب الصغير وذكرياته .. وحياته اليومية .. ومن هذا ما قاله على لسان الصغير يصف حاله بين الطفولة والصبا :

---

( ١ ) قام المؤلف بجمع أعمال الهراوى للأطفال ( ٢٢ عملاً ) لإعادة نشرها بدراسة وافية ..

حينما كنتُ وليدًا لم أكن أنطقُ حرفًا
إنما كان مُرادى فى سكوتى ليس يخفى
كنت إن أبصرتُ أمى أقبلتْ .. أبسُطُ كفا
وأبى إن جاء عندى لم أحوِّل عنه طرْفا
وابتسامى كان عطفًا للذى يُظهر .. عطْفا
وأنا -الآن- صبىٌّ أستطيع القول صِرْفا
فأحيِّى بلسانى صاحب المعروفِ ألفا

على حين نجده يتحدث بلسان الصغير أيضا وهو يلاعب طائرهُ فيقول :

الطائرُ الصغيرُ مسكنه فى العش
وأمُه تطيرُ تأتى له بالقش
تخالُه .. الطيورُ إذا بدا فى الفرْشِ
كأنه أميرُ يجلس فوق العرشِ

وهكذا يضيف الهراوى الكثير إلى ميدان شعر الأطفال .. فى أشكال كثيرة منها الأغنية ومنها القصيدة ومنها المسرحية .. مما يجعله أكثر الذين فهموا عقلية الطفل فقدموا له ما يلائمها .. بقصد التعليم فى صور ورسوم توضيحية مع كل قصيدة أو أنشودة .. كما لا يفوت الهراوى أن يربط الطفل بعقيدته الدينية ولهذا أفرد له

ديوانًا خاصا هو أنباء الرسل ، وقد بدأ فى إصدار أعماله عام ١٩٢٢ ، وظلت ضمن ما يقدم لتلاميذ المدارس حتى عهد قريب ..

وبهذا نستطيع أن نقول ، إن الهراوى قد نجح إلى حد كبير فى الوصول إلى عقلية الصغير محاولاً غرس المعرفة والجمال والموسيقى جميعًا .. ولو كان شعره قد خلا من كثير من التقريرية - المقصودة - لكان دستورًا لكل من يريد أن يكتب شعرًا للأطفال .

**محاولات أخرى :**

عاصر الشعراء السابقين بعضُ الكتاب الآخرين ، الذين جمع بعضهم بين النثر والشعر وبعضهم كتب شعرًا خالصاً .. ومن أبرز هؤلاء رائد أدب الأطفال ( كامل كيلانى ) - ( ١٨٩٧ - ١٩٥٩ ) .

ويرجع الفضل إلى كامل كيلانى فى كتابة القصة للأطفال .. أكثر من كتابة الشعر .. فقد استطاع أن يمّد الطفل بأول مكتبة عربية عنيت بتنشئته على أسس التربية الصحيحة .. فألّف وترجم .. وبسّط كثيرًا من الأعمال .. إلى جانب كتاباته للكبار ..

وحاول كامل كيلانى أن يكتب شعراً مبسطًا للأطفال .. أحيانًا يضعه فى ثنايا قصصه فى صورة مقدمات .. أو نهايات .. يقصد منها تربية الطفل وغرس القيم الاجتماعية والدينية ومنها :

أنا مازلت تلميذاً صغيرًا
ولكنى على صِغَرى مُجِدٌّ ..
أسيرُ إلى العُلا سيرًا حثيثا
وأنشطُ نحو غايتها وأغْدُو
وليس بنافعى طولٌ وعَرضٌ
إذا لم يُغْننى فهمٌ ورُشْدُ
فليس يقاسُ إنسانٌ بشبْر
ليعرف قدره إن جدَّ جِد
ونبْتُ القمحِ مرتفعٌ قليلاً
ولكنْ .. هل له فى النفع حدُّ
هو القوتُ الذى نحيا جميعًا
بهِ .. وهو الذى ما مِنْهُ بُدُّ

كما أخرج كامل كيلانى قصائد تثير فى نفس الصغير كثيرًا من المعانى النبيلة .. التى تُغذى الوجدان حتى فى أوقات لعبه .. ومن ذلك ما كتبه تحت عنوان ( لا أحد ) يقصد بها هذا اللفظ الجارى على ألسنة الأطفال عندما يعبثون بشىء فى المنزل ويحطّمونه أو يشوهونه .. وتسألهم الأم : من فعل هذا ؟ . فيجيبون فى بساطة : لا أحد ! . وقد وفق كامل كيلانى إلى التعبير عن هذا الموقف حين قال :

شخصٌ غريبٌ تسمعون دائماً
به .. وإن لم يرهُ منكم أحدْ
ولست أدرى أبداً : ما شكلُهُ
وكم له من معجزات لا تُعدُّ
أما اسمهُ : فهو غريبٌ عندكُم
تعرفُه كلُّ فتاةٍ .. وولدْ
فإن سألتُ : ما اسمُه ؟
فهو يسمى : لا أحد
إن تُركت أبوابُنا .. مفتوحة
أو طار من نافذة زجاجها
أو خُلعت أزرَّةٌ من مَلبسٍ
أوضَاعَ من آنيةٍ غطاؤُها
أو بُعثرت من مكتبٍ أوراقُه
أو سال من محبرة مدادهُا
ثم سألنا : من فعلْ . ؟
كان الجوابُ : لا أحدْ !

وهكذا يضع الطفل أمام مواجهة حادة مع هذا السلوك .. ويسخر منه إذا هو لجأ إليه ، ومن أبدع ما كتبه كامل الكيلانى تلك المقطوعة التى تسمى ( الوقت ) ومنها :

قالت الطيرُ : لقد حلَّ الشتاءْ
واستبدَّ البردُ واشتدَّ الصقيعْ
فوداعا : أيها الغصنُ وداعًا
سوف ألقاك إذا جاء الربيعْ
قالت الأوراقُ للغصن : وداعا
أيها الغصنُ - فقد حلَّ الشتاءْ
سوف ألقاك إذا ما الطيرُ عادتْ
فى الربيع الطلق تشدُو بالغناءْ
ثم قال الوقت للناس : وداعا
إنني أنفسُ شيءٍ فى الوجودْ
ترجعُ الأوراقُ والطيرُ جميعًا
وأنا من حيث أمضى لا أعودْ

وله أيضا قصة شعرية عن الأرانب .. وأخرى عن الغراب .. وثالثة عن عنقود العنب ، حتى أنه صاغ جزءاً من قصة شكسبير ( الملك لير ) شعرًا مبسطًا للأطفال ..

وكما يتضح حاول كامل كيلانى أن يجمع بين القصة والشعر .. ولكنه كان يميل إلى كتابة القصة .. وما أظنه كان يكتب الشعر إلا هامشيًّا .

* * *

أما الشاعر ( إبراهيم العرب ) فقد أصدر كتابا بعنوان ( آداب العرب ) عام ١٩١١ ، أى قبل وفاته بستة عشر عامًا ( توفى ١٩٢٧ ) - وقد نظم فيه تسعًا وتسعين قصة شعرية .. منها ما هو على لسان الحيوان ..

وقد جاء فى مقدمة ( آداب العرب ) :

« هذا كتاب خدمت به نابتة الوطن المحبوب .. وأجريت فيه الأمثال والحكم المأثورة ، ليأخذوا منها ما يربى نفوسهم ويقوِّم أخلاقهم ويطبعها على أصوب آراء المتقدمين .. إلخ » .

وواضح من هذا التقديم أن إبراهيم العرب يلتزم جانب المثل والحكم المأثورة على أفواه الحيوانات .. أى أنه قصد الجانب التربوى قبل أى شىء .. ومن قصائده تلك ما أطلق عليها : ( وحش الجبل والطيور ) يقول فيها :

حكــايــة عن غنىٍّ مــالــه عمــلُ
حبُّ التـظاهرِ فى الـدنيا لـه شغـلُ
بــدا لـه أنَّ دعــوى العلم رائجةٌ
منــه إذا بــات لــلآداب ينـتحــلُ
فـأحضر الكتْبَ لا علمٌ لـديه سـوى
أن الكتــابَ خفيفٌ أو بــه ثِقَــلُ
وصـار يحضـر أهــلُ العلم ساحتــه
عـلى موائـدَ .. فيها السمنُ والعسـلُ

ومن عــوارفــه لا من مــعــارفِــه

صارت تُصبُّ على راحاته القُبَلُ

ولا معــارض منهم إن بــدا خــطأ

ولا مجــادلَ فيهم إن بــدا خَــطَلُ

ويــرجعــون إليــه فى العلوم ومــا

لــديه من كــأسها نهلٌ .. ولا عَلَلُ

وبــالتملقِ قــالــوا لم نجــد أحــدًا

جاراك فى العلم حتى النُخْبة الأولُ

فصــار يعجبُ كيف المــالُ أبلَغَــهُ

تلك المكــانــة والجهــالُ لا تصــلُ

ويبدو أن كتاب ( آداب العرب ) لم يستطع المؤلف أن يتحرّى شيئا من البساطة إلا قليلا مما يصلح لأن يقترب إلى إدراك الأطفال .. ومع هذا فقد أصدرته نظارة المعارف المدرسية - أيضًا - وقررته فى المدارس الابتدائية بنين وبنات وفى مدارس المعلمات السنية ومدارس معلمى الكتاتيب .

* * *

وفى عام ١٩٤٠ - أصدر (جبران النحاس ) ديوانه ( تطريب العندليب ) وتضمن سبعًا وتسعين قصة شعرية مأخوذة من أمثال لافونتين .

ومن بين الذين كتبوا كذلك - فى مجلة جماعة أبولو ( ١٩٣٢ - ١٩٣٤ ) : الصاوى شعلان - بركة محمد - على عبد العظيم - وأيضًا - كامل كيلانى .

* * *

وهناك محاولات قليلة جدًّا للرصافى - ومحمود غنيم .. وعادل الغضبان الذى كتب ديوانًا خاصًّا للأطفال عام ١٩٦٢ بعنوان ( الوتر الناعم ) وقسمهُ إلى أقسام أربعة : الله - الوطن - الطبيعة - المجتمع - وأخذ يطوف بالطفل فى زوايا كل قسم ، محاولًا تقديم إحاطة شعرية ملائمة ، ومن قصائده تلك التى أسماها ( بلادى ) يقول فيها :

بلادى جنة الدنيا بها أزهوُ وأفتخرُ
ففيها الخصبُ منتشرٌ وفيها الحسنُ مزدهرُ
بلادى لستُ أنساها نأى بى أو دنا القدر

على حين يقول عن الأم :

أحبُّ أمى وأبى حبًّا قوىَّ السببِ
يجولُ فى جسمانى كالماء فى الأغصانِ
أحبُّ أمىَ التى تتعبُ فى تربيتى
وتسهرُ الليالى معنيّة بحالى

وربما وقفت القوافى هنا - وعند كثير من الشعراء السابقين - دون تحقيق التدفق الممتع للطفل - فيضنى الطفل عقله فى البحث عن معانى الألفاظ التى اضطر الشاعر إلى حشوها فى القصيدة ليكمل البيت .

* * *

أما الشاعر محمود أبو الوفا ( ١٩٠٢ - ١٩٧٩ ) .. فقد كتب للأطفال أناشيد وطنية ودينية .. كما كتب بعض القصائد التى تتحدث بلسان الحيوان وتعطى الحكمة والقيم العليا.

وفى رأى أبى الوفا : أن الفرق بين النشيد والقصيد ، أن الوحدة البنائية فى النشيد لا تعنى البيت ، كما هى فى القصيدة التقليدية أو التفعيلة العروضية - كما هى فى اصطلاح بعض معاصرينا - وإنما تعنى الشطرة ولك أن تسميها البيت .. ولهذا فإن النظام التركيبى فى النشيد يشبه النظام الأسرى .. إلخ .

ومهما يكن .. فإن أبا الوفا أجهد نفسه فى كتابة الأناشيد للأطفال رقيقة النغم .. حماسية الأداء .. وحاول أن يعطى الصغير موضوعات أقرب إلى إحساسه وحياته الخاصة .

فمثلا يكتب نشيدًا عن ( كرة القدم ) فيقول :

كرةُ القدمِ كرةُ القدم      هى لعبتنا منذُ القدمِ
يابن النيلِ يابن الهرم      العبْ العب كرة القدم

للكـرة نـداء يُشجينـا ويطيرُ بنا صوبَ الهدَف
وكـأنّ صَـداهُ ينـادينَـا سيرُوا سيرُوا نحو الشرفِ
فى العالم نحن لنهضتنا أصحابُ الرايـة والعلم
ومتى كنا فى ساحتهـا كنا الحراسَ على القيمِ

ومن الأناشيد الدينية يكتب للصغير ( دعاء الصباح ) فيقول :

يـا إلهـى يـاإلهـى يـا إلـه العـالمـين
يـا إلهى لـك أدعـو استجبْ لى يـاإلهى
أعـطنى الـقـوة حتى أجتـلى السـرَّ الإلهى
ليكنْ وجهُـك وجهى ليكن جاهُـك جـاهىَ
لـيكـن نـورُك قُـدًّا مِـيَ فى أىِّ اتجـاه
فـإذا الكـون أمـامى كـلُّه نـورُ إلهـى
وإذا أبصـرت لم أبـ ـصرْ سوى الحبِ الإلهى
يـا إلهـى يـاإلهـى يـا إلهـى يـا إلهـى

## لكن .. من الظالم ومن المظلوم :

كنا طوال رحلتنا الماضية نحاول أن نتعرف على الطفل .. فى أقاليم التاريخ المختلفة .. كيف نظر إليه الكبار وماذا قدموا إليه – من خلال هذه النظرة .

رأينا مثلا أن الحضارات القديمة – خاصة المصرية منها – قد

نظرت إلى الطفل على أنه عضو منتج فى المجتمع .. ولهذا فهو رجل - وإن كان صغيرًا - له حقوق وعليه واجبات .. وعلى ضوء هذه النظرة قدم إليه - الشعراء والكتّاب - ما يجعله فى سنوات قليلة ذا شخصية ناضجة .. وتكوين وجدانى ونفسى يساعده على ممارسة الحياة .

وسواء أدرك العرب هذه النظرة من واقعهم .. أم انحدرت إليهم من مصر القديمة .. فالعرب قد عمقوها ومارسوها ، وزادوا فى ملامحها - بقسوة أحيانًا على الصغير من أجل سيادة الإنسان على الأرض العربية ، فرأينا مثلا الكلمة - سلاحًا - والشاعر لسان القبيلة ، والطفل الصغير - أمل المستقبل - عناصر تمتزج جميعًا فى بوتقة مجتمع واحد .. تحكمه تقاليد وعادات وقيم وأخلاقيات تدل على شخصية هذا المجتمع .

كُرّم الطفل إذن فى المجتمع العربى ، ونظر إليه بأنه رجلٌ منذ البلوغ .. واستمع إليه وهو غلام حديث السن .. وربى على الكرامة والفروسية والجود .. والشجاعة والأدب وهو فى باكورة عمره ..

وأمام هذه المفاهيم - وفى غياب معرفة القراءة والكتابة فى العصر الجاهلى - تساوى الصغير والكبير أمام كل قضايا المجتمع .. فتقدير الصغير من تقدير الكبير ، وإهانته من إهانته وهكذا .

ومن ثم نطق بعض الصغار بالشعر - الذى ينطق به الكبار وتفخر به القبائل !

ووجدنا العرب يقسمون الطفولة إلى مرحلتين : مرحلة ما قبل النطق - وهى تعتمد على حاسة السمع والبصر - وقدموا لهذه المرحلة ألوانًا من الأهازيج تعرف ( بترقيص الصغار ) وشارك الشعر لعبة الصغير .. ومصاحبته القوافل .

وحينما تبدأ علاقة الصغير باللغة .. ومجالس الرأى والأدب .. يدخل مرحلة أخرى تتسم بالجدية والاستيعاب والتفتح على ألوان المعرفة والإبداع .. فلا مفر إذن وهو أمام ازدهار ثقافى وأدبى أن يدخل - ولو قهرًا فى البداية - إلى الساحة .. ثم مايلبث أن يشارك فيها ، إما متذوقًا أو مشاركًا فيا يبدع فيها .

ولهذا لم يكن هناك مجال لتبسيط اللغة .. لأن لغة الحديث اليومى هى نفس لغة الأدب والإبداع لا فرق بين هذه وتلك .. حتى أن الشعر الشعبى نفسه كان يكتب بهذه اللغة - حتى لو تبسط المبدع فى اختيار البحور الشعرية الراقصة أو البسيطة - .

وشعرنا - حتى فى العصور الإسلامية - أن الطفل قد زادت معرفته حينما تعلم القراءة والكتابة .. فاقترب أكثر من منابع المعرفة - اختيارا - فنهل منها .. وأزهر معها .. ونمى فى أحضانها .. وتلخصت فلسفة التربية فى إعطاء الصغير كيانه وحريته .

وإلى هنا لم نلمح ظلمًا يقع على الصغير .. أو يوجه من الكبير .. فالطفل يدلَّل فى سنواته الأولى ، بحكم فطرته الساذجة الجاهلة .. لكنه بعد هذه المرحلة لا يسمح له بهذا التدليل - وإن كان الحب

هو الوسيلة إلى تثقيفه وتربيته - ويستجيب الصغير إلى هذا عن قناعة .. ويبذل جهده للتفوق لأن المجتمع كله يحضّ على الثقافة .. ويعلم على التزود من المعرفة .. ويكرم العلم والعلماء .

وتمر على المجتمع العربى فترة مظلمة تنحدر فيها الثقافة .. وبالتالى اللغة ، وتتسرب المعرفة إلى الغرب .. والحضارة العربية إلى من يهتم بها خارج حدودها .. ويلتقط الخيط كثير من المفكرين فى الغرب ويحاولون أن يضعوا نظرية فى التربية مستفدين بما كان عليه العرب والمسلمون .. ونحن نيام لا نكاد نحس بما يسلب منا . !

ويترجمون الكثير عن تراثنا ويبسطونه للأطفال .. ثم نعيده هنا إلى العربية فى صور مختلفة .

ووقفتنا أمام هذه الأشعار - سواء ما ترجم منها إلى العربية أو ما ألف خصيصًا للطفل - توضح لنا أمورًا يحسن أن نلقى عليها الضوء .. إذ يبدو أن الأدباء المعاصرين حينما بدءوا ينشئون أدباً للأطفال .. وضعوا فى أذهانهم مقاييس مختلفة عن أدب الكبار .

وفى ظنى أن هذه المقاييس قائمة على نظرية مختلفة - أيضا - عن نظرية القدماء .. فعلى حين نظر القدماء إلى الأطفال - أنهم رجال صغار - يختلفون فقط فى الدرجة .. فقدموا لهم ما يقدم للكبار دون محاذير ، نظر المحدثون إلى الأطفال على أنهم ( صغار فقط ) . وعلى الكبار أن يهبطوا إليه ويدلّلوهم ويتحسسوا الطريق إليهم .

وعلى ما يبدو فى بدايات الكتابة للطفل ، كان الكتاب يأملون منها أن تجذب الأطفال إلى الأدب ببساطتها وسلاستها .. حتى إذا اقتربوا منه اقترابا حميمًا .. استطاعوا أن يقدموا إليهم ما كان يقدم من المستوى الجيد والمزدهر ..

لكن الأمر سار فى الاتجاه العكسى .. وأصبحت المقاييس تدعو يوما بعد يوم إلى افتراض ( غباء ) الطفل .. وجهل الطفل .. ومحاولة ( ترويضه ) .. وجذبه بكل الوسائل حتى لو كان هذا على حساب اللغة أو القيم الفنية !.

وتسود تلك النظرة القاصرة - للأسف - نظم التعليم - خاصة تلك المراحل التى يبدأ الطفل فيها علاقته بالأدب .. فنظرة فاحصة فى أى كتاب للنصوص والأدب فى المرحلة الإعدادية ، تدل على ( عظم ) هذا الجرم فى حق الصغير .. فقد تهافت كتاب وشعراء - لا علاقة لهم بالكتابة - وأحسبهم يعملون فى التربية والتعليم بحكم وظائفهم - تهافتوا على كتابة أناشيد وأشعار ، ما هى إلا منظومات لا لون لها ولا إحساس فيها .. تسطح وجدان الصغير وتبعده عن لغته وتراثه .. بالرغم من وجود نصوص جيدة لدى شعراء آخرين - قدماء ومعاصرين - يمكن بوسيلة أو بأخرى تقديمها إلى عقل الصغير ووجدانه ، وتحترم فيه إدراكه وذكاءه .

وأعتقد أننا بهذا نظلم معنا الطفل .. إذ ليس من العدل - بعد - أن يتربى أطفالنا على اللغة والشعر والقيم الحديثة بمثل هذه

النماذج الرديئة .. فى مرحلة نأمل فيها أن تتكون ملكات الطفل العقلية والاجتماعية والعاطفية واللغوية ! .

ترى ماذا يعنى تهافت مفتشى اللغة العربية فى التربية والتعليم على كتابة شعر الأطفال .. متجاهلين نصوصًا أخرى تضيف وتعطى الكثير للطفل .. ومتى نفيق ونوقف هذا التيار الذى ينطلق ليغرق كل شىء وكل قيمة أدبية فنية .. ثم نطالب بالاهتمام بالطفل .!

لقد ظلم الطفل من الذين يقومون على تربيته .. وظلم معه المناخ الثقافى الذى - تحت ستار التخصص - أصبح يفرق بين كثير من المستويات اللغوية والاجتماعية .. وبدأ الأدب نفسه يدخل فى مفاهيم غير أدبية .. فهناك أدب رجالى .. وأدب نسائى .. ومضمون يصلح للريف ومضمون للمدينة .. إلى نهاية هذا التشتت الذى يعتبر الطفل طرفًا أساسيا فيه .. تقصر الثقافة والتربية عن الوصول إليه وصولاً حقيقيا .!

# محاولات حديثة جدًّا من شعر الأطفال

أحدثت المتغيرات التى سادت المجتمع العربى فى النصف قرن الأخير .. تطورًا فى كل شىء .. وعلى صعيد الأدب .. ظهر لون جديدة من ألوان الشعر هو الشعر الحر ، أو الحديث ، يتحرر من قيود القافية ، لكنه يلتزم إيقاعات موسيقى الشعر الذى قال بها الأقدمون .. رغبة فى الوصول إلى المتلقى المعاصر ..

وصاحب هذا التطور تطورًا آخر فى الرؤية وأيضا فى اللغة .. باعتبارها كائنًا حيًّا .. يتطور وينمو ويضاف إليه ويتخلص من شوائبه على مدى الدهور ..

ولأن اللغة العربية - من بين لغات العالم - تتميز بثرائها .. وتعدد مفرداتها ومترادفاتها .. فإن الكاتب الذى استوعبها لا يقف عاجزاً أمام الوصول إلى أى مستوى عقلى .. حين يريد أن يختار له المستوى المناسب فى اللغة .

لكن الأمر قد يفهم على العكس .. حين ينظر إلى تبسيط اللغة على أنه طريق ممهد للعامية أو لما يسمى باللغة ( الثالثة ) .. وفى

هذا أيضا ظلم لطبيعة وشخصية اللغة العربية .. التى تستوعب وتعبر بقدرة وكفاءة فى كل ظرف وإلى أى مستوى إدراكى .

وفى رأيى أن التبسيط فى اللغة سمو بها ، وليس انحطاطًا ، أو إحداث لغة ثالثة ، وهو سهم يحسب فى جانب اللغة وليس ضدها . لهذا آمن كثير من شعراء الشعر الحز .. بضرورة فتح آفاق جديدة لهذا اللون فى مجال الدراما الشعرية .. والملحمة الشعرية .. وأيضا الكتابة للأطفال بالشعر .

وما يهمنا فى هذا المجال ما حاول الشعراء كتابته للأطفال بهذا اللون الجديد .. وهل استطاعوا أن يتفقوا على لغة مشتركة فى هذا المجال .

ولا أود هنا أن نحكم مطلقا على ما قدم للطفل بهذا اللون .. لأنها محاولات - وإن كانت مخلصة حقًا - لكنها لم تنضج بعد .. ولم تصبح تيارًا أو ظاهرة أدبية .. وليس أمامنا الآن إلا أن نعرض لبعض هذه المحاولات بتعليقات حذرة .. مجتهدة ..

**محاولات سورية :**

تجىء فى مقدمة هذه المحاولات ما كتبه الشاعر السورى ( سليمان العيسى ) .. فقد كتب ديوانًا من الشعر للأطفال إلى جانب مسرحيات غنائية كذلك .

ونجد الشاعر نفسه يعترف من البداية أنه تعمد الرمز والصعوبة

فى الألفاظ .. والغرابة فى بعض الصور - بما يفوق إدراك الأطفال .. وقد تعمد ذلك كله - فى رأيه - لإيمانه بقدرة الطفل على الالتقاط .. والإدراك بالفطرة .

وأعتقد أن الشاعر سليمان العيسى هنا يحاول أن يصحح مسار الكتابة للأطفال .. الأمر الذى يمكن أن يكون مقبولاً ومؤثرًا إذا لم يقصد الشاعر إلى ذلك قصداً - أعنى الصعوبة والغموض - وإذا لم يتذكر دائما أنه يكتب من وراء أعوامه التي قاربت الستين ودواوينه الاثنى عشر ومسرحياته الأربع .. وخبرته اللغوية القادرة .

لقد كان حل المعادلة - داخل وجدانه - صعبًا متعنتا .. فهو يريد أن يصل إلى وجدان الطفل الذى لا يمتلك خبرة لغوية أو خيالية عالية .. وهو أيضا يريد أن يرتفع به إلى مستوى الرمز فى الشعر - لغة ومضمونًا - لكن هناك ظلاً آخر انسحب على معظم أعمال سليمان العيسى هو ارتباط أشعاره - فى معظمها - بمفاهيم وطنية ترتبط بأحداث خاصة إقليمية ومعنويات تفوق إدراك الطفل المعاصر بكل المقاييس .. فهو يتحدث عن البندقية وأحلام التحرر .. والنضال المستمر .. والمستقبل العربى .. كما تكثر لديه الحواشى فى صفحات الدواوين لتفسير المعنى أو المفردات .. لكن ذلك كله لم يقف دون تقديم عدد من النماذج الجيدة التى استطاع بها أن يوازن فيها الإيقاع مع اللغة - نسبيًا - وتصل إلى الطفل دون مجهود كبير ..

فى إحدى قصائدة يقول سليمان العيسى :

القُبلة الأولى مع الصباح
لجبهة الفلاح
لساعد الفلاح
للسّاعد المفتولْ
تحيةُ الحقول
تعطيه ما يشاء من ثَمَر
من غلة كدفقة المطَر
وتضحك البلاد
لموسم الحصاد
ويسْعدُ البشر

وهذا نشيد كتبه فى نهر ( بردى ) :

بردى بردى نغمٌ وصدى
ظلٌّ وندى عذْبٌ أبدا
من جناتِ السطحِ الأسمرْ
يولد شلالاً من عنبر
فى شفتيه لحنٌ أخضرْ
وبخدَّيه .. ضحك المرمرْ

وفى مقطوعة ( سوار شعلة ) يقول :

كان لنا جيرانْ

وقريةٌ تمورُ بالألوانْ
بالماء بالأطيار بالشجرْ
وذات يومٍ غارت القريةُ فى الضباب
وصار بيتُ جدك الحبيبْ
يحتلُّه مستوطنٌ غريبْ

على حين كتب ما أطلق عليه ( أناشيد للأطفال ) تتسم بالعذوبة والإيقاع السريع الراقص ، ومن ذلك قوله :

قالت ربابُ : أنا ربابْ
العشْب أزهرَ والترابْ
عصفورةُ البيت الصغير .
وقبلةُ النور المذَابْ
نغمُ الصباح..
والدار أقلبها أنا
دنيا مراح
قالت ربابُ : أنا رباب
أنا زهرة بيدى كتاب

ويكتب على لسان صغيرة تسمى ( تيم ) أنشودة راقصة أخرى .. فيقول :

الرمل الناعم بين يدى
وأنا ألعبْ

أبنى بيتًا وطريق غد
أبنى ملعبْ
اسمى من ديوان العربِ
اسمى : تيمْ
اثنان نرفرف : قال أبى
أنا والغيْم
ياموج الشاطئ يا أزرق
افرحْ وامرحْ
فى الشاطئ زغلولٌ صفَّق
وأتى يسبحْ..

ويتضح من هذه النماذج محاولة الشاعر الوصول إلى ذهن الطفل ووجدانه ، مستخدما خبرته وحبه للشعر والطفل معا .

أما مسرحياته الشعرية للأطفال فهى محاولات رمزية فى الوطنية والكفاح العربى ، يمتزج فيها الشعر التقليدى بالشعر الحديث .. وتقف مع ذلك مثلاً فريدا فى هذا المجال .

أما ( خليل خورى ) من سوريا كذلك فقد التزم قضية فلسطين .. فجاء شعره توجيهيًّا فى إيقاعات عذبه .. وهذه قصيدة له بعنوان : ( رسالة إلى أطفال فدائى فى العيد ) يقول فيها :

أحبائىَ : عيسى .. هند .. ميسون
أسامهُ .. قيسٌ .. مأمونُ

إذا لم يأت بابا ليلة العيد
فليس لأن بابا قد سلاكم ياأعزائى

* * *

وبابا الآن منهمكٌ يُعِدُّ هدية كبرى
لأعينكم : هديتكم .. فلسطين .!

وهى قصيدة كما نرى تلتزم الخط الوطنى .. وتدخله إلى وجدان الطفل ، حين تربطه بمناسبة طيبة للأطفال هى مناسبة العيد ..

ولمحمود السيد الشاعر السورى أيضا .. نقرأ فى مقطوعته ( أربع لوحات )

لأنىَ ريح ..
حملتُ بثوبى حبوب اللقاح
وطُفت بها الأرض دون ارتياح
ودون مديح ..
لأنى نهار
صفعتُ بسوطى جموع الكسالى
وقلت جهارا
دعوا الاتكالا
تصيروا كبارا

والملاحظة فى التجربة السورية أنهم يتخذون مساحة الشام وأحداث فلسطين مادة يقدمونها إلى الطفل .. ويجعلونه يعايش تلك

الأحداث .. ويتفاعل معها .. لكن هذه المادة - فى رأيى - إذا لم تتطور ويعطى الشعراء مزيدًا من المضامين الأخرى .. فسوف تفقد روعتها وتأثيرها الفعّال ، وتصيب الطفل فى المستقبل القريب بالسأم والإحباط[1] .. ومع هذا فهى خطوة جيدة على طريق شعر الأطفال شارك فيها سليمان العيسى - محمود السيد - خليل خورى - حسيب الكيالى - أحمد الجندى - محمد الحريرى - حامد حسن - نصوح فاخورى .. وآخرون .

## محاولات عراقية :

وبين يدى الآن تجربة حديثة فى ( العراق ) قامت بها دائرة ثقافة الأطفال فى بغداد .. وهى تتمثل فى إصدار سلسلة شعرية لأعمال الطفل المختلفة ، وبأقلام شعراء متحمسين لتجربة شعر الأطفال - عراقيين وغير عراقيين - منهم عبد الرازق عبد الواحد - وبيان صفدى - وجمال جمعه - .. بل اتسع نطاق التجربة ليكتب فيها سليمان العيسى - أيضا - وكريمة العراقى - وتركى كاظم جودة - وغازى الفهد - وحسن عبد الحميد ناصر - وفالح حسين - وهادى ياسين على - وغيرهم كثير .

---

( ١ ) هذه الأعمال كتبت منذ سنوات قليلة .. ولابد أن كثيرًا من هذه المضامين تحتاج إلى إعادة نظر - كما هى الحال فى شعر المناسبات الذى لا تستقر أقدامه كثيرًا فوق الأرض الواحدة .

وواضح من التجربة أنها صدرت من واقع دراسة واقعية إلى حد كبير لاحتياجات الطفل الوجدانية وهى فى معظمها أقاصيص شعرية بعضها تحكى عن الحيوانات والبعض الآخر مستمد من القصص العالمى، فمن هذه التجربة ماكتبه ( عبد الرازق عبد الواحد ) بعنوان ( الطفل والفراشة ) :

| | |
|---|---|
| رأيت ذات مرة | فراشة ملونة |
| كأنها لحسنها | من ذهب مكونة |
| من زهرة لزهرة | تطير وهى حالمة |
| تحملها أجنحةٌ | مثل الحرير ناعمة |
| وبينما كنا معًا | فى فرَح نرقبها |
| إذا بطفل هائج | بمضرب يضربها |
| فأفلتت من يده | لكن هوت فوق الثرى |
| وقبل أن يلحقَها | أجملُ مشهد جرى : |
| كان أبوه واقفًا | فهب كى يدركها |
| محتضنا صغيرَهُ | قبيْل أن يمسكها |
| صاح الصغير باكيًا | أريدها يا أبتِ |
| لكنْ : أبوهُ ضَمَّهُ | إليه فى محبّة |
| قال له ياولدى | أعلمُ كم تحبُّها |
| لأنها جميلةٌ | جميعنا نحبها |
| لكنها رقيقةٌ | تقتلها لمسُ اليد |

أنقتل الشيء الذى نحبُّه ياولدى
فوقف الطفلُ وما مدَّ إليها أصبُعَه
وحين طارت مرةً أخرى رأينا أدمُعه
وكان يرنو وأبوهُ فرحًا يرنو معه

هكذا ببساطة شديدة تحكى قصة بالشعر فى كتيب مقوى ، لا يزيد عن ست عشرة صفحة فقط ، كل بيتين فى صفحة مصحوبين بصورة معبرة .

وفى قصيدة أخرى بعنوان ( البحار الصغير ) يقول الشاعر عبد الرازق عبد الواحد أيضا :

أنا فتى بحَّار تسحرنى البحار
أحبُّها لأنها تملؤها الأسْرار
تلمعُ فى قيعانها اللآلئُ الصِّغار
والسمك اللَّماع والمرجان والمحار
أحبها لأننى تبهرنى الأسْفَار
السندباد فى دمى والموج والأخطار
وقد رأيت زورقًا يحضنه العَشَّار
كقلعة يحوطها الجلال والإكبار
ثم تهادت خلفه قلاعُنا الكبار
عرفتها فإنها أسطولنا الجبَّار
وظل طيف السندباد فى دمى يُثار

الله لــو أنى بــه محــاربٌ مــغْــوار
حيث يـســيرُ زورقى تــلـتـفــتُ الأنــظار
يخشى العــدو صــولتى والمــوجُ والإعــصــار
الله لــو ... الله لــو لــو أنــنى بــبحــار

ولاشك أن العذوبة هنا والقدرة والسيطرة على القافية لا تجيء إلا من شاعر متمكن يطوع اللغة والتعبير كما يشاء .

وهذا ديوان آخر بعنوان ( أغلى كلمة ) للشاعر ( بيان صفدى ) يتضمن قصائد شعرية عن القمر والنخلة - والوطن - والأمير والحطاب - نختار منها هذا النشيد بعنوان ( ضيوف القمر ) .

قمرٌ غالٍ
للأطفال
كم غنينا .. لك ياقمرُ
تحت ضيائك طاب السهرُ
افتح بابك .. إنَّ صحابك
جاءوا الآن فهم زوارُ
ولهم عند حدودك دارُ
جئنا .. جئنا .. فاستقبلنا
واقبل باقة ورد منّا ..

كما تتضمن هذه التجربة ديوانًا اشترك فيه مجموعة من

الشعراء . نختار منها هذه الأنشودة البسيطة بعنوان ( أرجوحة ) :

أرجوحتى .. مكانها
ما بين فرعىْ شجرة
وعاليا تأخذنى ..
حيث الغصون النضرة
أشاهد الأنهارْ
والروض والأطيار
وأجمل الأزهارْ
وفى طريق عودتى ..
تقول لى صديقتى :
تعال يانزار
نبارِكُ النهارْ
بفرحةِ الصِّغار
أرجوحتى رمزُ الفرحْ
ألوانها قوسُ قزح

أما ( سليمان العيسى ) فقد صاغ سندريلا شعرًا حواريًّا ، بما يقربها إلى المسرح أو المواقف التمثيلية ، لكنه - كما سبق وأوضحنا - يعمد إلى الصعوبة والرموز أحيانًا من أجل أن يدرِّب الصغير على معاناة التذوق .

وفى الواقع أنا من أنصار أن نبسط التعبير بالقدر الذى نستطيع

به أن نأخذ بيد الطفل حيث هو ونجعله يتطلع حيث نكون .. أى لا نبسط اللغة بصورة لا تضيف إلى إدراك الطفل معجمًا جديدا .. ولا نتقعر فيها .. فينفر منها .. ولكن فلسفة الشعر هنا هى إحداث التوازن الوجدانى والعقلى معًا .. أو التذوق والفهم معًا .

كما قدمت دار الثقافة أيضا تجربة أخرى من خلال أشعار شوقى التى كتبها للأطفال ، أعدها ( فتحى خليل ) الذى جمع فيها بين الشعر والنثر .. فقد بدأ كل قصة شعرية على ألسنة الحيوان .. بنثرها وقَصِّها .. - أولا - ثم أفرد صفحتين للكلمات التى يمكن أن يجد الطفل فيها صعوبة ، وأثبت معناها ( مصورًا ) ثم بعد ذلك أثبت القصيدة - أو القصائد - مصورة على طول الكتاب .. ثم أنهى الكتاب بنبذه عن الشاعر أحمد شوقى وصورة شخصية له[1] .

وأعتقد أن هذا العمل بهذه الصورة يجمع بين كثير من المميزات .. فهو يعرف الطفل بالقصة - نثرًا - ثم يعرفه على الكلمات الصعبة ومعناها .. فيكتسب بذلك حصيلة لغوية يضيفها إلى معجمه الخاص .. ثم يقرأ (شوقيا ) فى قصيدته كما هى .. ثم يعرف أخيرًا من هو أحمد شوقى الذى أمتعه طوال هذه الصفحات.

ويبدو أن أشعار أحمد شوقى قد أغرت الكثيرين ( بنثرها ) فى

---

( ١ ) صدرت عن الهيئة العامة للكتاب نفس الفكرة عن أشعار أحمد شوقى من إعداد الكاتب عبد التواب يوسف .. وإن كانت تتسم بالعجلة فى إخراجها .. إلا أنها لا تختلف كثيرًا عن التجربة العراقية ..

كتيبات مستقلة للأطفال منذ سنوات طويلة فى مناطق متعددة من الوطن العربى .. وبين يدى سلسلة بها خمسة وعشرون كتيبًا للأطفال ، صدرت فى ( ليبيا ) تحت عنوان عام هو : ( قالت الحيوانات ياأطفال ) ويبدو أن هذه الطبعة - غير مؤرخة - تسبق تجربة العراق والتجربة المصرية - إذ عمد مؤلفها - الدكتور محمد التونجى إلى سرد القصة الشعرية نثرًا على طول الكتاب .. ثم أثبت القصيدة الشعرية فى صفحة واحدة هكذا :

( قال الشاعر أحمد شوقى ) :

ثم ترد القصيدة بأكملها التى سردها نثرها - مع بعض التصرف والخيال القصصى - على مدى صفحات الكتاب ..

التجربة المصرية :

آن لنا الآن أن نتساءل عن التجربة المصرية .. هل لعب الشعراء المحدثون دورًا فى أدب الطفل .. أم تراهم تخلفوا عن ذلك ؟!

وابتداء أعترف - كواحد ممن يكتبون الشعر الحر - أن هذا اللون الذى نكتبه يمكن أن يكون إيجابيا لو أخلصنا إليه كشعراء .. لكن مادمنا نستهين بهذا المجال - وهو مجال شريف لا يقل أهمية عن أى مجال آخر - فلن نضيف شيئا .

ولحسن الحظ .. يستجيب لدمعة الطفل المصرى شعراء

كثيرون .. حاولوا الكتابة للأطفال سواء بالشعر التقليدى أو الشعر الحر .. وكلهم متحمسون رغبوا فى فتح آفاق جديدة فى قلعة الشعر الحصينة ..[1]

### عبد العليم القبانى :

هذا شاعر سكندرى متعدد الاهتمامات والعطاء .. باحث مجتهد وشاعر له مذاق متميز بين الشعراء العموديين ..

أصدر القبانى أخيرا ديوانا للأطفال بعنوان ( قصائد من حديقة الحيوان ) وهى كما يدل العنوان الجامع تتناول سلوكيات الحيوان .. فى مقطوعات صغيرة من عدة أبيات .. يخرج الطفل بعدها بقصة قصيرة أو موقف وأيضا بحكمة نافعة.

ومن هذه القصائد قوله :

طاول الثعلب يوما أسدا     إذ رآه يتنزّى فى القيود
قال ياأضعف سكان الفلا     همةً .. كيف على الغاب تسود
أنت ما أنت .. إذا قيس الألى     شرفوا الأدغالَ من حمر وسود

---

( ١ ) أجرى أخيرا مركز أدب الأطفال بدار المعارف مسابقة فى شعر الأطفال ، وتقدم إليها بعض العاملين بالتربية والتعليم .. وكان المستوى معظمه ضعيفًا لأنه غلب عليه النظم الخالى من روح الشعر الذى يقترب من وجدان الطفل .. ومع هذا وضعت المقاييس على ما قدم لا على مايجب أن يكون !! ومما يؤسف له أن المسابقة قصد لها ألا تأخذ حظها فى الإعلان لكى يحتجب عنها شعراء لهم تجارب حقيقية فى هذا المجال .

وتمادى يشتم الليث فما تفلتُ الآباء منه والجدود
وإذا بالليث يُلقى نظرة صورت معنى من الحكم السديد :
( لست ياثعلب من يشتمنى إنما يشتمنى هذا الحديد )

إن الشاعر هنا يحاول أن يستحدث موقفا .. ويضيف معنى .. ويؤكد على مفهوم الحرية ويرمى بالغرور والتكبر ..

وفى قصيدة أخرى يقول :

على الأغصان عصفورُ صغير السن مغرورُ
رأى فى الحية الرقطا ءِ حُسنا .. فهو مسرورُ
وما يدرى بأن السُّـ ـم تحت الناب مستورُ
وأقبل نحوها يسعى فنادته العصافير
تحذره من الأفعى فإن حنانها زورُ
فلم يعبأ بما نصحت وللأوهامِ تأثير
وغنى حولها طربًا فأمسى وهو مقبور
ومن يغتر بالأوهام تُهلكه المقادير

وهى صياغة أخرى فى نفس المعنى السابق ..

ومن المقطوعات الطريفة تلك التى تسمى ( رسالة ديك ) والتى يقول فيها :

رنا ديكى إلى الأفق الموشى وغردِ ثم صفق ثم صاحا

ونادى الناس حسبكم رقادا فإن الله قد بعث الصباحا
رقـادُكمُ ومـوتكمُ سـواء إذا ما الصبح فى الأفاق لاحا
وعاد لعشّه يختـال عجبًا فقد أدى الرسالة واستراحا

* * *

أما الشعراء الذين كتبوا بالشعر الحديث فهم كثيرون .. ويجىء فى مقدمة هؤلاء الشعراء : سمير عبد الباقى - أحمد الحوتى - أحمد زرزور - وحسين على محمد وكاتب هذه السطور .

أما ( سمير عبد الباقى ) فهو إلى جانب أنه شاعر جيد .. فهو يكتب العامية .. ويكتب قصصًا نثرية للأطفال ومسرحا للطفل .. ودخل أيضا إلى ساحة الشعر ليقدمه فى بساطة وقدرة للأطفال ..

وما يهمنا بالقطع ما قدمه سمير عبد الباقى من قصائد أو حكايات شعرية للأطفال .. وفى اعتقادى أنه استطاع أن يضع يده على المفاتيح الحقيقية - غالبا - للوصول إلى وجدان الطفل .. فقد تنوعت قصائده بين الطبيعة واللعبة والطيور والحيوان والوطن .. والتراث الشعبى جميعا . وبهذا يحاول أن يجعل من الطفل مثقفًا صغيرا .. ومن حقنا الآن أن نقتطف من أعماله هذه النماذج ؛

( الشمس والأطفال )

ياشمس ياصديقة الإنسان

والنبات والشجرْ
يامنبع الضياء والنماء
يامضيئة القمر
من أول الزمان
أنت نعمةُ السماءِ للبشر
وزهرةُ الحرية
ياشمسنا العربية
من أقدم العصور أنت أجمل الزهور
أنت غنوةُ المطر ..

وفي قصيدته ( على الأرجوحة ) يبدأها هكذا :

على أرجوحتى أعلُو
تدور برأسى الأفكارْ
أرى نفسى أطيرُ .. أدور
كأنِّى طائرُ الوروارْ
أسابق نحلة العسلِ
أزور الوردَ والأزهارْ
وأعلو مرةً أُخْرى
كأنى طائرٌ جبَّار

وحينما يريد أن يدل الطفل على ( ألف ليلة وليلة ).. يقول :

فى ألف ليلةِ وليلة رجال :
من يمتطى الخيول
أو يركبُ الأفيال
ومن يطير فوق ومضةٍ من الخيال
أو فوق بارقِ الشعاعِ
أو عواصفِ الرياح

وبعد أن يشرح له - بهذه السلاسة والمتعة - كثيرًا من شخصيات ألف ليلة يقول له محفزاً إيّاه على قراءة هذا التراث العظيم:

لو عشت يابنى ليلةً بألف ليلة
تكون قد خُلقت من جديدْ
تحسُّ عندما تعودْ
بأن حلمك البعيدْ
أن يصنع الرجال للأطفال
عالماً سعيدا !

والميزة هنا أن الشاعر متنوع فى التقاط قصصه ومواقفه وموضوعاته التى يقدمها للطفل ، ولأنه يمتلك القدرة على تفجير اللغة .. فهو حريص على تقديم اللغة مشبعة بالمعنى والخيال معاً ،

حتى تصيب الصغير المتعة والمعرفة معًا .. وهذه ميزة تحسب إلى جانب الشاعر ..

### أحمد الحوتى

أما أحمد الحوتى فهو شاعر شاب كذلك أصدر أعمالاً شعرية فى دواوين .. وهو يكتب العامية كذلك والمسرح إلى جانب الشعر .. ومن أعماله الشعرية التى كتبت خصيصاً للأطفال تلك المجموعة - تحت الطبع - التى أسماها - الورد والشجرة ..

وهى أشعار على لسانه هو كصديق صغير يتحدث مع أصدقائه الصغار كذلك .. ويبدأ معهم من لحظة التفتح على الكون - لحظة الحب - حب الناس - ثم يأخذ بيدهم عبر الشوارع والطرقات ، ويلتقط لهم مواقف وحكايات ، ما كان يجب أن تحدث لو أن كل إنسان أخلص فى عمله وحبه للناس ولبلده .. ولكى تكتمل الصورة .. ساق لهم كذلك مواقف وحكايات من يخلصون فى عملهم .. ومن يحبون بلدهم .. ثم نجده مثلاً يدعو الصغير ليس فقط للحب .. ولكن لتقدير كل فعل ولو كان صغيرًا .. واحترام كل إنسان ولو كان ملونًا أو ينتمى إلى طبقات فقيرة ، فالناس سواسية خُلقوا من بطن واحدة ..

فمثلا يقول فى ( حكاية المصباح المكسور ) .

لنا صاحب ..
ينير الليل فى الشارع
ويسهر تحته الأطفال كلَّ مساء
هو المصباح ..
والمصباحُ حين ننامُ يرعانا
ويملأ نومنا أفراح
ولكنى وجدتُ صديقنا الليلة

حزيناً ..
كان مكسورًا
ولم يسهرْ مع الأطفال
وحينِ ننامُ لن يحكى لنا الأحلام
حزنتُ لأن صاحبَنا .. حزينٌ هذه الليلة

سألتُ أبى .. فأخبرنى .. بأن صديقَنا ممدوح
رمى الفانوسَ بالأحجارِ والطوبِ
فكسّره ..
ولنْ يحكى لنا الأحلام
وقال أبى : سنُصِلحُه
لكى يحكى لنا الأحلام
وقال أبى : هو المصباحُ فى الشارِع

صديقُ الليلِ والأطفال
فلا تكسْره يا ولدى
فحين ننامُ يرعانا .. ويملأ نومنَا أفراح ..

لا شك أنها لقطة ذكية صيغت فى كلمات ونغم عذب .. وأيضاً قوية التأثير حينما يستمع إليها الطفل أو يقرؤها مصورةً .. مجسّمة .

وحين يريد من الطفل أن يحسّ بالجمال .. يصوغ ذلك فى قصيدته ( الورد والشجرة ) فيقول :

جكى لى شيخُ حارتِنا
بأن الوردَ .. والشجرة
تمامًا مثلَنا أطفال
وأن الوردَ يفرحُ حين نسقِيه
ونرعاه .. ويبكى لو قطفْنَاه
وفى مرَّةْ ..
دخلتُ حديقةَ الحيوان
أنا .. وجميعُ أصحابى
وكنا نلعبُ الألعاب
بعيداً عن مكانِ الوردِ والأشجار
رآنا الشيخُ ..
حيانى .. وحياهم ..

وتنتهى القصيدة هكذا بحكمة بالغة مختفية .. وفى فنية قادرة .

## أحمد زرزور

أما الشاعر الثالث فهو أحمد زرزور .. وأيضًا صدرت له أعمال شعرية .. ونشرت شعره المجلات المتخصصة - وقد واظب منذ فترة طويلة على نشر أشعار للأطفال فى إحدى مجلات الأطفال العربية ..[1] .

وشعر أحمد زرزور الذى بين أيدينا يخاطب الطفل فى باكورة علاقته بالمدرسة مع حصيلة لغوية قليلة - فى كلمات وسطور قصيرة جدًّا مكثفة المعنى والخيال .. من ذلك :

بيوتٌ .. هناك  بيوتٌ هنا
بيوتٌ لنا  ولمن حولنا
فمنها الكبيرُ  ومنها الصغيرُ
ومنها الغنىُّ  ومنها الفقيرُ
بيوتٌ على الغصن  فوق الشجرْ
وأخرى على الوردِ  أوفى الحُفَر
تعالوا نغنّ  لها كلُّنا
لنحيا بها  وهى تحيا بنَا

على حين يقول فى قصيدة أخرى عن ( الحمل الصغير ).

---

( ١ ) هى مجلة ( ماجد ) .. ومن الاهتمام بالشعر .. تنشره المجلة على صفحة كاملة مهما كان عدد أبيات القصيدة مع إطار جميل من الرسم بريشة فنانين قادرين ..

تعالَ يا صديقى يا حَمَلى الصغيرْ
تعالَ كُنْ رفيقىِ لا تبطئ المسيرْ
تعـالَ فـالضيـاءْ فى الصبحِ قد أطَلْ
هيّـا إلى الفِناء نلهو ولا نَمَـلْ
اقفزْ هناك وامرحْ فى الساحةِ الرمليّةْ
ودعِ يدى لتمسحْ فـروتَك الفضيّـةْ
تعالَ فوق صدرِى أُطعمُك الأعشابْ
وبعد ذاكَ نجرِى يا أجمَل الصِّحابْ

ولم يقتصر أحمد زرزور على شكل الشعر الذى يلتزم القافية .. فقد وجد فى إمكانه أن يكتب بشكل الشعر الحديث .. لكنه – فى تصورى – يحتاج إلى إثبات وجوده أكثر فى هذا الشكل الجديد ..

وأمامى الآن نموذج نشره زرزور تحت عنوان ( الولد الذى صار طبيباً ) يقول فيه :

سمعتُ ذات ليلةٍ من جدّتى الحَنُون
حكايةً غريبةً عن ولدٍ شقىّ
تعوَّدَ الكذِب ..
تعود الخداعَ والدهاءْ
وكان يومُه يمرُّ فى تدبيرِ ألفِ مَقْلبٍ ومَقْلب
مستهزئاً من طيبةِ الصحَاب ..

وذات يوم يا أحبّتي – تقولُ جدتى –
وكان هذا الولدُ الشَّقِيُّ يستحمْ
والموجُ عند الشاطئ البديع
هادئٌ رفيقْ
وساكنٌ وديعْ ..
فصاحَ : يا صحابُ أسرِعُوا
فإنني أضيعْ
أنقذوا أخاكمُ الذى يحيطُه الخطَرْ ..

ويكمل الشاعر قصة الولد الشقى ، الذى كان يسخر من أصحابه فى كل مرة يمثل فيها الغرق .. حتى كاد التيار يبتلعه بعدما انصرف عنه الصحاب لكذبه وخداعه :

لولا اقترابُ زورقٍ يمرّ صدفةً
فأسرع البَحَّارْ .. وأنقذَ الصبىَّ مِن براثنِ الأخطار

وينهى الشاعر قصيدته بأن الولد تعلَّم بعد ذلك ألا يكذب . !

وليت الشاعر أحمد زرزور دخل بأسلوبه مجالاً أوسع هو مجال الدراما الشعرية للأطفال .. وهى من الفنون التى تدعو الشعراء – وقد قدروا على كتابة القصيدة – أن يسهموا فى هذا المجال ..

**حسين على محمد :**

أما الشاعر الشاب حسين على محمد فهو متعدد الألوان فى الإبداع .. فقد كتب الشعر - قصائد ومسرحاً - كما أن له محاولات نقدية ودراسية - لا بأس بها - وفى ديوانه الأخير ( الحلم والأسوار ) الذى صدر عن المجلس الأعلى للثقافة ( ١٩٨٤ ) خاض الكتابة للأطفال شعراً فى ثلاث قصائد أفرد لها باباً فى نهاية الديوان وهى :

١ - الفيل الوفى : فهو فيل وافق أن يساعد السيدة ( دايارام ) الأرملة التى تقترب من الخمسين .. وأصبحا صديقين حتى فاض النهر على القرية والعجوز نائمة فى كوخها .. فينبهها الفيل إلى الكارثة .. لكن النهر لا يغرق إلا جاراً ظالماً للعجوز كان قد استولى على أرضها .. يقول الشاعر فى قصيدته القصصية على لسان الفيل الوفى :

ذات مساء كان شديدَ الإظلام
فاض النهر ..
وأغرق أرضَ الوادِى كلَّه
كانت دايارام المسكينةُ نائمةً فى الكوخ
فطرقْتُ الباب ..
وأشرتُ إلى النهر

لكن المسكينةَ ضحكت
كانت تحسَبُ أن النهرَ أتىَ بالخير
ورأيت البسمةَ تعلُو شفتيْها .. فصرخْت
وتنبهَتِ المسكينةُ ساعتَها
حملتْ ما تقدِرُ .. ركبتْ فوقِي .. ! ( وهكذا )

٢ - ملجأ الأيتام : وهى قصة هندية وقعت فى بلدة ( فاناراسى ) لصانع سجاد يسمى ( فوندان ) الذى يحكى للملك قصة تجعله يبنى ملجأ أيتام للأطفال الفقراء العرايا .. ومنها يقول فوندان :

تعرفنى كلُ المدنِ وتعشَقُ مصنوعاتِى
فى أثناءِ الأسْفار
أجِدُ الأطفالَ عرايا يفترشُون ترابَ الأرضِ فأحزن
أتمنّى أن يجدَ الأطفالُ بيوتا
تحميهم من حرِّ الشمس
وتقيهم شرَّ الأمْطَار ..

٣ - الثور العجوز : وهذه قصة شعرية تتحدث عن العدالة حتى لو طلبها حيوانٌ مثل ( الثور ) يشكو معاملة صاحبه السيئة .. فقد استطاع الثور أن يضرب الجرَس الذى يوقظُ السلطانَ وينبهه إلى أن شاكيا يريده .. ويعرف السلطان معاملة ( بيليتز ) السيئة للثور .. وينصفه السلطان ويأمر بيليتز بأن يوفر للثور أسباب

الراحة ، يقول الشاعر :

أخذ الرجلُ الثورَ .. وعاد
لحظيرته ..
صوتُ السلطانِ يرنُّ بأُذُنَىْ بيليتز :
يا بيليتز : تعلّم أن تحترمَ الطاعنَ فى السِّن
وتوفرَ سبلَ الراحةِ له
وخصوصاً لو كان من الحيوانِ الأعجم
لا يعرفُ أن يتكلم
كم من جاهل
نُبصِرهُ يضربُ تلك الحيواناتِ بلا رحمة
مع أن الحيوانَ يؤدى أعمالاً صعبة
لا يطلبُ أجره ..
لو نطقَ لكشفَ لنا .. ظلمَ الإنسانِ وشرَّه ..

وأعتقد أن الشاعر لديه أدواته الجيدة التى يستطيع من خلالها أن يضيف الكثير إلى شعر الأطفال خاصة مضامين من تراثنا العربى .. سواء على مستوى القصيدة أو القصة أو الدراما الشعرية ..

أحمد سويلم :

وليسمح لى القارئ الآن أن أقدم له - بتواضع شديد - جهدى فى مجال شعر الأطفال .. فقد بدأت تبسيط قصص من ألف ليلة

وليلة منذ ثلاث سنوات وكانت لغة التبسيط نثرية - أو لنَقُل إنها لغة شاعرية[1] .

وفى أواخر عام ١٩٨٢ كتبت أول مسرحية شعرية باللغة العربية الفصحى عن كامل كيلانى - فى ذكراه - بعنوان ( حكايات وأغانى كامل كيلانى ) وتضافرت جهود كثيرة فى إخراج هذا العمل على المسرح .. وأحمد الله أن استقبله الكبار والصغار فى حب وتقدير[2] - واحتوى هذا العمل على رؤية تسجيلية درامية .. قدمت من خلالها ثلاث قصص : واحدة من حكايات جحا - وواحدة من ألف ليلة وليلة - وثالثة من التراث الفلسفى هى : حى بن يقظان ..

وبعد نجاح هذا العمل بحمد الله وتوفيقه .. انتهيت من عمل درامى آخر بالشعر أيضًا بعنوان ( حكاية الصندوق السابع ) وهو عمل مأخوذ من ألف ليلة وليلة كذلك بتصرف كبير .

ووجدت الآفاق أمامى مفتوحة للكتابة للطفل .. فبدأت أكتب محاولات قصيرة شعرية بعضها قصائد .. وبعضها أقاصيص شعرية على أفواه الحيوانات .

ومن بين القصائد التى تتسم بالإيقاع ما كتبته تحت عنوان :

---

( ١ ) نشرتها دار الشروق برسوم الفنان مصطفى حسين .

( ٢ ) أنتج هذا العمل المركز القومى لثقافة الطفل بالقاهرة - وهو من إخراج هناء سعد الدين - وموسيقى - جمال سلامة - وعرائس نجلاء رأفت .

( أتمنى لو ) .. وفيها أقول :

أتمنى لو أنى عُصفور
ألهو .. ألعبُ .. وأغنىَّ فى النورْ
وأنقِّرُ فى الصبح نوافذَ أصحابِى الظرفاء
وأقولُ : صباحَ الخير
صباحَ النورْ

.....

أتمنى لو أنى ديكُ الفجرْ
أصحُو .. وأؤَذِّنُ لصلاةِ الفجْر
أرفعُ رأسى لله للخالق
وأسبِّحُه .. وأقول :
( سبحانَ الله ..
حيَّ على بيتِ الله .. )
وأصلّى لله صلاةَ الشكرْ
الناسُ يحبُّون صياحِى كلَّ صباح
فأنا أوقظُهم – وأقول :
( قُومُوا للعمل .. تنالُوا من رب العالمِ
أعظَمَ أجْر )

.....

أتمنى .. لو أنى أسدٌ فى الغابَة

أحكمُ بالعدلِ على كلِّ الحيوانات
حتى ينتشرَ الأمنُ بكلِّ مكان
حتى تصبح كل الحيواناتِ صَحَابَةْ
وهكذا مع أكثر من خمسةَ عشر حيوانًا وطائراً ..

أما الأقاصيصُ الشعرية .. فقد حاولت أن أجمعَ فيها بين السرد القَصَصى .. والحوار .. والغناء : متى سمحَ الموقف بذلك .. وهى فى معظمِها أيضًا عن الحيواناتِ .. منها مثلًا قصة بعنوان ( حيلة وحيلة ) أقتطف منها هذه السطور :

صاحبَ كلبٌ ديكاً
وانطلقا يوماً فى نُزهة
قضيَا يومَهما لَعِباً بين الخضرةِ والأشجار ..
حيناً .. يتغنىّ الديكُ بأحْلى الأنْغام
وحيناً .. يحملُه الكلب على ظَهْرِه
أو يسبقُ أحدُهما الآخرَ بين الأَعشَابْ
حتى حانَ الليْل ..
فصَعِدَ الديكُ إلى أعلى الشَّجرة
واستسلم للنوم وللأحلام .
.....
ويُطلُّ الفجر على الدُّنيا
نهضَ الديكُ يؤذّنُ للصبحِ بصوتٍ عذب :

( كوكُو .. كوكُو .. كوكْ .. كوكْ ..
يا خالدُ .. يا عبلةُ .. يا مبروكْ
يا كلَّ الأشجارِ .. وكلَّ الأنهارْ
يا كلَّ الطير .. وكلَّ الحيواناتِ .. وكلَّ الأزهارْ
الصبحُ يجيءُ .. تعالوا .. نفرحْ .. ونغنّ
ونصلِّ للرحْمن
يا أصحابِي ..
قومُوا .. وانتبهُوا
الشمسُ تقولُ : صباحَ الخير
ابتسموا للشمسِ وقولوا :
يا شمسُ صباحَ الخير ..
كوكُو .. كوكُو .. كوكْ .. كوك ... )

وهكذا .. أما بقية القصة فقد سمع الثعلب صوت الديك وعرف مكانه .. فذهب إليه .. ولم ينتبه أن الكلب ينام تحت الشجرة .. طلب الثعلب بمكر شديد من الديك أن يهبط إليه لأنه أعجب بصوته ويريد أن يضمّه إلى أحضانه ليهنئه على صوته العذب .. لكن الديك أدرك ما يبغيه الثعلب .. فقال له : كنت أود لو أستطيعُ أن أهبطَ لكن :

تحتَ الشجرة يرقدُ بوابٌ قاسٍ ومخيف
وعليك الآن ..

أن توقظه حتى يفتحَ بابًا فى الشجرة
أهبطُ منهُ إليك ..

ويذهب الثعلب ليبحث عن هذا ( البواب القاسى المخيف ) .. فيقفز عليه الكلب ويخلّص الديك منه ..

أما المسرحيتان .. فقد تضمنتا الحوار - بالطبع - والأغنية الجماعية .. والأغنية الفردية والنقد ( بمعنى إشراك الأطفال أنفسهم بالرأى فيما يعرض عليهم وهى مواقف فى نسيج العمل نفسه ) .

فمثلاً فى مسرحية ( حكايات وأغانى كامل كيلانى ) - يواجه الأطفال كلًّا من كامل كيلانى ( بَشَرِى ) وشهر زاد ( عروسة ) وهما يتحاوران .. وقد نسيا - قليلاً أن هناك من الأطفال من يتعجّل الاستماع إلى حكايات كيلانى .. فيصرخ الأطفال :

احكوا لنا .. احكو لنا
لا تتركُونا وحدَنا يا أيها الكِبَار
أحكوا لنا حكايةً مسلّية
فنحن لن نَنَام
ونحن لن تأخُذَنا الأحلام
بغير قصةٍ جديدة
لا تتركونا وحدَنا يا أيها الكبار

فيرد عليهم كامل كيلانى :

يعجبنى هذا الصدقُ بأعينكم يا أبنائى

كم أتمنّى لو يصدقُ كلُّ كبير فى حِسّه
لو يصبح إنساناً يصدُقُ فى العملِ .. ويصدُقُ فى القول
ويصدق فى حب الناس

وبالطبع لن يستطيع القارئ العزيز أن يقف على حقيقة العمل إلا إذا كان بين يديه أو شاهده معروضاً .. وكما قلت .. إن ما أعرضه اليوم - لى أو لغيرى - ما هو إلا شيءٌ من كثير نحاول به أن نقرّب إلى الطفل المعاصر لغتنا الجميلة .. وشعرنا العربى الأصيل وتاريخنا وتراثنا ... وهذه قضية لا يجب أن تبعد عن أذهاننا فى مشروعاتنا الثقافية التى نوجهها إلى الطفل ..

## ثم مـاذا !

ليس هذا تساؤلاً .. لكنه فى تصورى بداية دعوة لزحف جماعى من الشعراء ، أتمنى لو يستجيبون له ، لكى يظل وجه الحضارة العربية مشرقًا فى لغة عربية سليمة .. وفى طفل سوف يحكم العالم لا محالة .

فقد قيل إن يوليوس قيصر قال لولده وهو يداعبه : إننى أحكم العالم .. وأمك تحكمنى وأنت تحكم أمك .. إذن فأنت تحكم العالم . !

إن هذا الحاكم الصغير - العنيد - يتطلب منا الاهتمام به وترويض عناده عن طريق الشعر والخيال .. فنجمع فى شخصيته بين التثقيف والإمتاع .. وغرس الحس اللغوى السليم وحثه على تقبّل الحياة .. ودفعه إلى الاجتهاد والعمل والإنتاج .. وتعرّفه على تاريخه وحاضره وتشجيعه على صنع مستقبله اعتماداً على رؤيته الخاصة .

وقد رأينا منذ بدأنا رحلتنا .. كيف نظر القدماء إلى الطفل على أنه رجلٌ - صغير السن - ومن ثم غمسوه فى بحر المعرفة والمتعة معًا .. فى قسوة أحيانًا .. وفى حنان أحياناً أخرى .. ولهذا نشأت

أجيال العباقرة ومدُّوا العالم بما يستمتع به من التقدم والازدهار . -

ثم رأينا كيف نظر المحدثون إلى الطفل .. على أنه كائن مدلَّل وهو فى تصورهم لا يتحمل أكبر من طاقته مهما كان هذا القدر الذى يتحمله .. وساد هذا المفهوم .. فخشِينا على أطفالنا .. واستمر هذا الخوف حتى انقلب فى نفوسنا عجزًا وبعدًا عن حقيقة شخصية الطفل ..

ثم ها هم شعراء اليوم - لو أفاقوا وقدّروا الموقف - يستطيعون أن يعدِلوا الموازين ، ويشقوا الطريق الصخرية إلى وجدان وعقل الطفل .. بما يملكون من قدرات عصرية .. وفهم وذكاء وقيم فنية تعينهم على تحمل هذه المسئولية .

وإذا كانت القصة قد سبقت الشعر فى هذا المجال .. فما أحرانا اليوم أن نعقد مصالحة مع الطفل ونقدم له تراثه - شعرًا - وواقعه أيضاً - شعرًا .. فيقترب وجدانه من وجدان أجداده .. ونعيده إلى صواب المعرفة والحب أيضاً .. حب الشعر ولغته وحب تاريخه وأمجاده .

* * *

وإذا رأى القارئ - أو الناقد - أن هذه المحاولة قد أصابها بعض القصور .. فإنى أعتقد أنها قد وضعت يدنا على بعض الحقائق التى قد يختلف عليها الكثيرون لكن يثبتها الواقع والتاريخ .. ومن هذه الحقائق على سبيل المثال :

* أن الطفل فى حضارة مصر القديمة كان يُنظر إليه على أنه عضو عامل فى المجتمع .. أى أنه رجل له حقوقه من العلم والتأديب والتهذيب .. وعليه واجب المشاركة ولهذا لم يعدْ لنا - بعد - أن نعجب حينما نجد حكاماً وفلاسفة ومفكرين صغارًا لم يبلغوا سن الرشد لكنهم ينطقون بما ينطق عنه الكبار .

* أن العرب كذلك أمة قدَّرت أطفالها - منذ فطامهم - وأن اللغة التى كانوا يتداولونها فى الحديث اليومى هى نفسها اللغة التى يروُون بها أدبهم .. ولهذا دخل الطفل مجال الشعر والأدب والمجتمع .. مشاركاً منذ نعومة أظفاره - دون أن يشعر بصعوبة أو عنت - وهذه ميزة الحضارة العربية .. حتى أن بعض الأطفال - كذلك - نطقوا بالشعر والحكمة وهم صغار .. وحكموا وأقاموا العدل فى سن الصبا .

* أن ما تواضع عليه - النقاد وأسموه ( شعرَ الحيوان ) لم يكن مستحدثاً .. لكنه وجد منذ قرون طويلة لدى مصر القديمة .. ولدى العرب قبل أن نعرف كليلة ودمنة وإيسوب وقبل أن يعرف العالم الغربى - بالتالى - هذا الفن .. ثم ها هو يعود مرة أخرى إلى مصر ممثلًا فى أشعار محمد عثمان جلال .. وأحمد شوقى ومن نحا نحوهما .

* أن الشعر التعليمى لا يصيبه ( التقليد أو القدم ) لأنه فن خالد مثل الأهرام .. كتبه المصرى القديم وحضارات العالم الأخرى

والعرب كذلك .. وهو يمثل فى أدبنا المعاصر ركناً أساسيًّا كذلك وحقيقة واقعة مهما اختلفنا عليها .

* أن من العدل أن يُعطى كل ذى حق حقه .. فى أى فترة من فترات الزمان ولهذا فمن الخطأ أن ينسب مثلاً إلى أحمد شوقى ريادته لشعر الأطفال أو إلى الطهطاوى - وحده - إدخال أدب الأطفال المدارس .. أو أن الأدب المكتوب للأطفال لم يوجد إلا فى العشرينات من هذا القرن .. إلى نهاية هذه الأحكام الخاطئة المطلقة التى تزيف كثيرًا من حقائق التاريخ .. وحسبنا فى هذه الدراسة المتواضعة محاولة تعديل بعض هذه الموازين المقلوبة .

* وأولاً وأخيرًا وكل يوم .. لا غناء عن الشعر .. ولا غناء للشعراء عن الكتابة للأطفال ولهذا فأنا تتملكنى حماسة فى دعوة أصدقائى الشعراء أن نحتكم إلى كل هذه الحقائق ونتضافر فى عمل ( ديوان الطفل العربى ) على أن يكون ذا شقين : .

١ - شق نجمع فيه نماذج من التراث - ماضيه وحاضره - مع شروح بسيطة على أن يختار بعناية ودقة .. وبه تعريف للشاعر صاحب القصيدة ومناسبة القصيدة إن وجدت ..

٢ - وشق حديث مؤلف خصّيصاً .. تتسع فيه الرؤية .. والرقعة الفنية على مستوى القصيدة أو الألوان الأخرى للإبداعِ ..

وأعتقد - صادقاً - أن تجربتى فى الكتابة للأطفال شعرا تؤكد ذكاء هذا المخلوق الذى فى داخله يرفض التدليل .. ويرفض تلك النماذج النظميّة الجافة التى يتلقاها فى قاعات الدرس .. وينظم معظمهَا ( زبائنُ التأليف ) فى وزارة التربية والتعليم .. وهذه قضية آن الأوان لحسمها .. والتخلص من شوائبها .. فمصر لديها شعراؤها الذين يمكنهم أن يعطوا بلا حدود .. من أجل مستقبلها .. وليس كل عامل فى مجال التربية شاعرًا بالقطع .. وكفانا صمتاً على مثل هذه المسلمات التى أعتقد أنها تدهورت بعقول صغارنا كثيرًا .. ولو كلف أحد هؤلاء الناظمين نفسه بالنظر والتأمل فى دواوين الشعراء المعاصرين - منذ شوقى حتى الآن - لعثر على النماذج التى ترفع مستوى ما يقدم .. والتى تضيف إلى عقلية الصغير .. وتجعله يقترب حسًا ووجدانًا من فن العربية الأول ( الشعر ) !

إنها دعوة أرجو أن تجد صداها لدى كل من يشعر بالمسئولية الأدبية والاجتماعية أمام الأجيال القادمة التى سوف تحكم العالم - لا محالة .

وبعد

فإذا كانت هذه الرحلة - على طولها - قد تصيبها بين الحين والآخر بعض المعوقات أو أنها تشكو الخور والعنت من مواصلة اللهاث .. فإننى لا أملك إلا أن ألتمس العذر لكل ما وقعت فيه من

حفر أو عثرات .. فهى مجرد محاولة .. ووضع علامات وإشارات ودعوة حميمة من القلب والعقل فى هذا الموضوع .. والمحاولة بلا شك تحتمل كثيرًا من الخطأ .. وقليلًا من الصواب !!

والله الموفق ،

# أهم المراجع


* فى موكب الشمس - د . أحمد بدوى
لجنة التأليف ١٩٥٠
* التربية والتعليم فى مصر القديمة - د . عبد العزيز صالح
الدار القومية ١٩٦٦
* فى الأدب المصرى القديم - أحمد عبد الحميد يوسف
دار الكرنك ١٩٦٢
* الحكم والأمثال عند المصريين القدماء - محرم كمال
المكتبة الثقافية ١٩٦٢
* الموسيقى والغناء عند قدماء المصريين - فكرى بطرس
دار المعارف ١٩٨٣
* أساطير العالم القديم : صمويل نوح كريم ت :
أحمد عبد الحميد يوسف
الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٤

* من ألواح سومر صمويل نوح كريمر ت : طه باقر
مؤسسة فرانكلين
* إيسوب - أ . د . ونيتل ت : د . مختار الوكيل
( الألف كتاب ) ١٩٥٦
* مختارات من الشعر الفارسى ت : د . محمد غنيمى هلال
الدار القومية ١٩٦٥
* الأغانـــى - للأصفهانى
دار الشعب
* الشعر الشعبى العربى - د. حسين نصار
م . ثقافية ١٩٦٢
* التربية فى الإسلام - د. أحمد فؤاد الأهوانى
دار المعارف ١٩٦٨
* لعب العـــرب- أحمد تيمور باشا
نهضة مصر ١٩٧٧
* الفتوة عند العرب - عمر الدسوقى
نهضة مصر
* كليلة ودمنة - ابن المقفع
دار الشروق بيروت ١٩٧٣
* الشوقيات حـ ٤ - أحمد شوقى
المكتبة التجارية ١٩٧٠

* الحكاية على لسان الحيوان عند شوقى - د. سعد ظلام
دار التراث العربى ١٩٨٢
* العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ - محمد عثمان جلال - تحقيق عامر بحيرى
هيئة الكتاب ١٩٧٨
* شعـــرى - محمود أبو الوفا
مطبعة الأوقاف ١٩٧٣
* أدب الأطفال - هادى نعمان الهيتى
وزارة الإعلام العراقية ١٩٧٧
* دواوين الأطفال - محمد الهراوى
لجنة التأليف والترجمة - دار الكتب المصرية - ١٩٢٢ - ١٩٢٩
* الطفل يستعد للقراءة - د. محمد محمود رضوان
دار المعارف ١٩٧٣
* مقدمة ابن خلدون
مطبعة التقدم ١٣٢٩ هـ
* رسائل الآباء إلى الأبناء - إيفان جونس ترجمة لطفى الخورى
النهضة بغداد ١٩٦٢
* تمهيد لفن الموسيقى - ماكس بنشار ترجمة محمد رشاد
نهضة مصر ١٩٧٣

# موضوعات الدراسة

## للمؤلف

- الطريق والقلب الحائر ( شعر )

دار الكاتب العربى ١٩٦٧

- الهجرة إلى الجهات الأربع ( شعر )

مؤسسة التأليف والنشر ١٩٧٠

- البحث عن الدائرة المجهولة ( شعر )

دار الناشر العربى ١٩٧٣

- الليل وذاكرة الأوراق ( شعر )

مكتبة مدبولى ١٩٧٧

- الخروج إلى النهر

الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٠

- أخناتون ( مسرحية شعرية )

دار المعارف ١٩٨٢

- شهريار ( مسرحية شعرية )

الهيئة العامة للفنون والآداب ١٩٨٣

○ شعرنا القديم - رؤية عصرية - ( دراسة )

المجلس الأعلى للثقافة ١٩٨١

○ المرأة فى شعر البياتى ( دراسة )

الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٤

○ قصص ألف ليلة وليلة للأطفال

دار الشروق ١٩٨٢

○ ديوان الهراوى للأطفال

المركز القومى لثقافة الطفل ١٩٨٥

○ السفر والأوسمة ( شعر ) دار الشروق ١٩٨٥

**تحت الطبع :**

○ العطش الأكبر ( شعر ) مكتبة مدبولى .
○ حكايات وأغانى كامل كيلانى ( مسرحية شعرية للأطفال ) .
○ حكاية الصندوق السابع ( مسرحية شعرية للأطفال ) .

---

| رقم الإيداع | ١٩٨٥ / ٥٠٦٣ | |
| --- | --- | --- |
| الترقيم الدولى | ٩٧٧-٠٢-١٤٤٨-٥ | ISBN |

١ / ٨٤ / ٣١٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

ط ٥٠